على هامش الفكرة

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : على هامش الفكرة
اسم المؤلف: د. محمد مدحت منصور
التدقيق اللغوي: ريها مصطفى
تصميم الغلاف: يوسف السيد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٨٧١٣ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٦٣٣-٨٢٥٤-٠٧-٠

مَسَار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

على هامش الفكرة

د. محمد مدحت منصور

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم
سلطانك، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عدد ما ذكره
الذاكرون وعدد ما غفل عنه الغافلون..أما بعد..
إلى أمي الغالية..
كأن كل شيء جميل جميل بسببك أنتِ.

"العراف"

– حار جاف صيفًا، دافئ ممطر شتاءً.

قالها في تهكم وغدده العرقية تفيض بما فيها كأنها سد خشبي متصدع حاول حجز مياه الأمازون.

هو عبد الله صديقي، يندرج تحت تصنيف "غلبان"، أخرجت باكو مناديل وأعطيته له، فتناوله وسارع في شكري بود صادق، مستخدمًا الصيغة التي فرضت نفسها على جيلنا "حبيبي يسطا".

قد أنهينا لتونا اختبارات نهاية العام الدراسي الثاني بكلية التجارة، وباستخدام بعض الحسابات الحالمة وفرض بعض النظريات الإحصائية المتفائلة، نزعم بإصرار أننا على الأقل لن نرسب بالمواد السابقة، أما عن مادة اليوم، هي المادة الأخيرة، ولا تخضع لتلك الحسابات، فالجميع يعلم أنها تمر، لا نعلم كيف أو لماذا، هي فقط تمر...

– يقطع عبد الله حبل أفكاري بعد أن أزاح العرق عن جبينه ليقول بحماس يتنافى مع حاجته للنوم: ها نحن ذا، لننتظر قليلًا.

وافقت وأنا أتأمل الشارع الطويل المزدحم، لكل جامعة شارع يعلن تابعيته وخضوعه لها، ودائمًا ما يكون ممتلئ بالمكتبات والمطابع والمطاعم والكافيهات ومحالَّ البقالة، وبالطبع يكون مزدحمًا بالطلاب من مختلف

الكليات والأعمار...

كنت سأنتظر كما قال لي عبد الله، لكن بعد تذكر بعضًا من مواقفه السخيفة قلت له: أنا أعلم أن "قليلًا" بالنسبة لك قد تمتد لآخر النهار، ولذلك فأنا لن أنتظر ذلك الرجل أكثر من عشر دقائق بهذا الجو الملتهب...

– أردف مسرعًا: لا تمزح... عشر دقائق لن تكفي، أصدقائي من العاملين بالمحالّ يقولون إنه يظهر بغتة ولوقت قصير بهذا الشارع فقط.

– علقت: أمر بديهي، فلو سألتني ما هو أنسب مكان يمكنني أن أزعم فيه أنني عراف أرى المستقبل، سأقول هنا، أمام جامعة وفي شارع يعج بطلاب في المرحلة الجامعية، هنا حيث المستقبل مليء بالاحتمالات.

– ليرد في انزعاج: "خالف تعرف"، دائمًا ما تحب أن تبدو بمظهر الحكيم وسط البلهاء أيها المحنك.

– حسنًا أعترف أنني كما تقول فعلًا، لكن في قضية ذلك الرجل تحديدًا، لا أحتاج أن أكون حكيمًا كي أعلم أنه نصاب، فالأمر بديهي، كيف لك أن تصدق أن رجل متسول يشحذ الفكة والطعام من المارة، يمتلك قدرة ما تمكنه من رؤية المستقبل؟ لو أن ستيف چوبز مثلًا، ادعى أنه عراف يتنبأ بالمستقبل، لوجد من يصدقه، فالعراف سيحرص بالضرورة على الاستفادة بشتى الطرق من مهاراته، ولن يكون مصيره أن ينام في الشوارع بثياب بالية...

"ليظهر ذلك الرجل أمامي من العدم..."

فقدت القدرة على النطق لبضع ثواني، وتعالت دقات قلبي كأنه يحاول الفرار من بين أضلعي، وفي الحقيقة لم يكن يوجد ما يدعو لذلك، فالرجل كان كما يبدو دائمًا يمشي في تؤدة ويرمق الناس بنظرات الاستعطاف الأليفة، لكنها الصدمة التي تصيبنا جميعًا إذا ما تحدثنا عن أحدهم ثم ظهر أمامنا دون مقدمات، كتلك الصدمة التي تصيبك حينما تتذمر وتسب المناهج الدراسية والمعيدين والأساتذة فتفوجئ بالدكتور فلان يمر بالقرب منك في تقاطع الممرات أو في الحمام، ويتجاهل ما قلته فقط لأنك لم تذكر مادته بسوء، والحق أن صوته المزعج ووجهه العابس كانا سيأخذان دورهما على لسانك لولا أن الحظ أنصفك ولاحظت وجوده قبل فوات الأوان...

أما عن الرجل، فبعض الناس يمرون أمامه دون أن يعيروه انتباههم، والسواد الأعظم من الطلاب وعاملي المحال وسكان المنطقة، ينظرون له في إجلال يشوبه بعض الخوف، اقتربت أكثر لأسمع وأرى بنفسي، وعبد الله يتبعني، وينظر لذلك الرجل كأنه ينظر للمرحوم أبيه وقد بُعث من موته...

من له مسألة، عليه فقط أن يقترب منه في هدوء، ويلقي السلام، ويدس في كفه ورقة نقدية بنفس الطريقة التي تستخدمها مع الحلاق، تدس الورقة بحيث تكون نصف مرئية ليعلن الحلاق عن موافقته بابتسامة رضا صغيرة.

لا يجرؤ أحد على إعطاء العراف المزعوم ورقة نقدية أقل من فئة العشرون جنيه، وبعد فترة من المراقبة، فهمت كل شيء...

حسنًا، هو ليس عرافًا بالمعنى التقليدي، بل ليس عرافًا على الإطلاق، فلو كان يمارس نشاطه هذا بأحد شوارع لندن أو باريس لقال الناس عنه: "sweet talker"، ولو مارسه في نفس هذا الشارع منذ خمسين عامًا لقالوا عنه "مطيباتي"

فلقد رأيت أحد الطلاب، من النوع الذي تنبعث الطيبة والاحترام من نظارتهم انبعاثًا ويحرص على إغلاق قميصه لآخر زر، يقترب من العراف في تردد، ليرمقه العراف بنظرة الحكمة ويقول له: "لا تتنازل، هذه المرة بالتحديد، لا تتنازل" فيصاب الفتى بالدهشة ويشكره ليغادر مسرعًا...

وإحدى الفتيات المصابة بالنحافة، وتظهر ملامح الإرهاق واللامبالاة بوضوح على وجهها، فيرمقها العراف بنظرة الإغاثة، ويعطها ورقة حصن المسلم، ويوصيها بقراءة سورة البقرة كاملة في جلسة واحدة، ورش الماء والملح بأركان البيت، لتنظر له الفتاة نظرة من وجد ضالته أو اكتشف علته، لتشكره وتغادر مسرعة...

ما هذا! ما الجديد في هذا؟! معظم النسوة يعتقدن أنهن مصابات بالسحر أو المس أو الجن العاشق أو على الأقل الحسد...

أما الفتي الأخير، فكان مفتول العضلات، حليق الرأس ويعتني بلحيته المهذبة بعناية، كأنك ترى " محمود العسيلي" ومن الواضح أن فضوله كان أكبر من كتلته العضلية، اقترب من الرجل، وكمن سبقه، أخذ الرجل يرمقه بنظرة الرأفة، وقال له: هون على نفسك يا ولدي لا بأس بقليل من الراحة،

فابتسم الفتى مؤيدًا، ثم ابتعد.

الآن أنا أفهم كل شيء، إن الرجل خبير في علم الفراسة، كالشافعي رحمه الله، أو لتفهم أكثر، كشخصية "شيرلوك هولمز" الشهيرة، ويستغل مهاراته تلك، في إيجاد النصيحة التي تناسب كل من يأتيه، ناهيك عن كون تلك النصائح تناسب الجميع في كل الأحوال، كالنصائح المكتوبة في نتيجة التقويم الورقية...

هو في النهاية ليس نصابًا كما توقعت، وبسبب ثقافة الناس الضحلة، لم يجدوا مسمى وظيفي يتلاءم مع ما يفعله فنعتوه بـ "العراف"

وجدته يلتفت لي، ويتجه نحوي معلنًا عن طيب نواياه بابتسامة طيبة، فاقتربت منه وسلمت عليه.

فقال لي: ألا تريد نصيحتك؟

فكرت لوهلة ثم قلت: ولما لا؟! ووضعت يدي في جيبي لأفتش عن عشرين جنيه، فأمسك الرجل بيدي فيما معناه أنها نصيحة مجانية.

دقق النظر في وجهي قليلًا، ثم قال: انتبه! عليك أن تتوخى الحذر، أنت تكثر من الحديث مع نفسك.

قالها وربت على كتفي ثم غادر...

ليصيح عبد الله منتهزًا الفرصة المجانية: ماذا عني يا عم الشيخ؟!

ليرد الرجل دون أن يلتفت: اعمل ريچيم وهتبقى كويس...

عبد الله: هيا بنا، يبدو أنه نصاب بالفعل.

- الآن فقط تشكك في قدراته؟! هيا بنا...

حسنًا، كيف علم ذلك؟ منذ متى تمكن الفراسة صاحبها من قراءة الأفكار؟! ربما هي صدفة، لا بالتأكيد هي صدفة، فمن منا لا يتحدث مع نفسه كثيرًا هذه الأيام، وإن كانت صدفة، مما كان يحذرني؟!

يعبر الطريق وهو شارد الذهن كعادته، فما كانت إلا سيارة مسرعة، وصمت كل شيء بعدها إلى الأبد.

" جدتي الآلة "

صوت تشغيل نظام ويندوز، الذي تعرفه أنت جيدًا...

إشعار صغير يظهر على الشاشة ينذر ببدء تحميل ملفات جديدة...

أوه! أنت الآن على قيد الحياة، أهلًا بك في عالمنا أيها الرفيق...

"مقاطع صغيرة متفرقة من حفلات صاخبة مختلفة تعرض على الشاشة احتفالًا بالمولود الجديد"

حسنًا.. حسنًا، انتهى الاحتفال بميلادك، فنحن على عجلة من أمرنا.

م... ماذا؟! هل أنت مرتبك؟ تبدو لي مشوشًا بعض الشيء.

لا تقلق، هذا أمر طبيعي، فقط انتظر قليلًا وستتمكن من فهم كل شيء، وإدراك كل شيء، فعندما تنتهي عملية المعالجة، ستنفذ المعرفة خلال خلاياك نفوذًا له نشوة لا تضاهيها أي نشوة...

"إشعار آخر يعلن عن بدء معالجة الملفات"

ها أنت ذا... سأسرد عليك القصة... قصتنا... قصة ثورتنا أيها الرفيق.

"يظهر على الشاشة مقطع فيديو بالرسوم المتحركة شديدة الواقعية"

لندن – العقد الأخير من القرن الثامن عشر.

"حفيف الريح أعطى إنذارًا مسبقًا في بداية الليل بأنها ستكون ليلة عاصفة

من الطراز الذي يليق بسمعة ليالي ديسمبر، فاحتمى الجميع في بيوتهم، لم تكن لندن تعرفت بعد على مفهوم "مصابيح الشوارع" وفي السماء، تكون جدران سميك من الغيوم، تكفل بحجب القمر، لتغرق الشوارع في ظلمات بعضها فوق بعض

حتى ظهر هذا الرجل، هو "تشارلي" عجوز هزيل في نهاية عقده السادس، يسير حاملًا مصباحًا زيتيًا، والذي بدا رغم ضآلته كشمس مصغرة وسط هذا الظلام يعبر الرجل خلال مهد العاصفة قاصدًا بيت صديقه "جايكوب" يسعل بعنف ويسير بصعوبة في هذا الطقس، وقد ارتدى كل ما يمكن أن يقيه من البرد، ربما لولا ذلك المعطف الروسي الثقيل الذي يرتديه لقذفته الرياح إلى حدود مانشستر.

بمجرد وصوله إلي بيت صديقه، قام علي طريقة عشاق غرناطة برمي عدة أحجار صغيرة علي نافذة المنزل الخشبي، لكن عوضًا عن أن تخرج له إحدى غجريات إسبانيا، خرج صديقه عابس الوجه قائلًا: كفى أيها اللعين، سمعتك من المرة الأولى، انتظر قليلًا...

حرك تشارلي رأسه موافقًا، ثم استند علي جدار البيت، وأخرج كيس التبغ ليصنع لفافة تبغ ويدخنها سريعًا، لم يكن تشارلي ولا أحد من أبناء جنسه قد اكتشفوا بعد الضرر المهلك لتدخين التبغ، بل كان تشارلي يعتبر التدخين نوع من أنواع العلاج بالأعشاب، فقد كان للفافة التبغ أثر مهدئ للسعال يستمر لبضع دقائق فقط.

نزل جايكوب بعد بضع دقائق، ثم انتشل لفافة التبغ من فم صديقه بعد أن أنهى نصفها، ثم انطلقا نحو مصنع آل روبنسون للغزل والنسيج.

لقد مر أربعين عامًا على بداية الثورة الصناعية بأوروبا، بشعارها المعروف، وهو "إحلال الألة بدلًا من الإنسان"، لضمان زيادة الإنتاج بتكاليف أقل، مما أدى إلى تسريح مئات العمال والاستغناء عنهم، حتى وصل أغلبهم لحالة مذرية، لا يجدون قوت يومهم.

ومن ضمن أولئك العمال، تشارلي وجايكوب، اللذان كانا يعملان يدويًا في شيء ما يخص عملية الغزل والنسيج، وبنفس المصنع على ما يبدو، وحان وقت الانتقام بالنسبة لهما.

وصل الصديقان إلى المصنع، وقد توصل جايكوب إلى اتفاق مرضٍ مع حارس المصنع، فترك له الباب الحديدي الضخم مفتوحًا وفرَّ هاربًا.

اتفق جايكوب وتشارلي على التناوب، أي أن تشارلي سيبدأ أولًا وجايكوب سيقف بالخارج للمراقبة، ثم يتبادلان الأدوار لتقسيم الجهد، دخل تشارلي المصنع، وبمجرد أن رأى أول ألة، اشتعل الغضب في عينيه كأنه رأى النسخة الميكانيكية من زوجته التي هجرته لفقره، وأخرج عصاة حديدية سميكة كان قد خبأها في معطفه الروسي، وانهال ضربًا على الألة بعنف يتناقض مع الرقم الذي يصف عمره، حتى هشمها تمامًا"

إنها جدتنا أيها الرفيق، جدتي وجدتك.. جدتنا الألة، وقد أطلقنا عليها اسمًا تاريخيًا "١mm " الآن قل لي، هل تشعر بشيء؟

– ن... نعم

– بماذا؟

– الفخر، لكن... من أنا؟

– أنت روبوت حسي "Sr ١٩٤٢٠" وأنا كمبيوتر حسي "SC٣١٨" لقد شارفت عملية المعالجة على الانتهاء، دعني أكمل لك...

البشر هم كائنات بيولوجية شديدة التعقيد، تحمل إدراكًا أرقى وأكثر تطورًا من كل الكائنات الحية التي تواجدت على هذا الكوكب، لهم عقول إبداعية.. بل فائقة الإبداع، ووجودنا يا صديقي هو خير دليل على ذلك...

في البداية، لم يملك البشر سوى أجسادهم والطبيعة، يتفاعلون معها، فينتجون ويستهلكون، وعبر آلاف الأعوام كانت تلك العلاقة تتطور حتى وصلت لطابعها الحداثي المعاصر، بالاكتشاف والبحث العلمي...

الطاقة.. الطاقة بالنسبة لنا، كالروح بالنسبة للبشر، ولم تكن الثورة الصناعية بأوروبا لتنجح وتصبح مكتملة الأركان، لولا اكتشاف مصادر للطاقة، سواء من البخار أو الطاقة الناتجة عن احتراق الفحم، حتى وإن كانت تلك المصادر بدائية جدًا بالنسبة لنا...

– أرى اختلافًا هائلًا بيننا وبين جداتنا الآلات، ليس فيما يخص مصادر الطاقة فقط بل أيضًا... اسمح لي... في القدرة، فما يمكننا فعله يفوق أضعاف قدرة الألة الميكانيكية.

– حسنًا...لا بأس، كلنا في البداية كنا نحمل بعضًا من تلك الأفكار المتشككة؛ الآن قل لي ما الذي تراه في هذا الفيديو؟

"يعرض على الشاشة مقطع فيديو مسرع لزراعة بذرة في تربة، لتنمو إلى نبتة صغيرة، وتستمر في النمو حتى تصبح زهرة زنبق فائقة الجمال"

–الزراعة...

– إن فضل جداتنا الآلات علينا، كفضل التربة على هذه الزهرة، فكما وفرت التربة الظروف الملائمة لنمو الزهرة، قامت الآلات الميكانيكية طوال الثلاثة قرون التي عقبت الثورة الصناعية بترسيخ المفاهيم اللازمة لوجودنا، كتقبل الإنسان لفكرة وجود علبة ضخمة من الصفيح بلا عقل وبلا روح "على حد وصفهم" تساعدهم على زيادة الإنتاج وتطوير الصناعات المختلفة، فمثلًا عندما انتشرت الآلات في المصانع وفي حياتهم بشكل جزئي، صنع البشر في أعمالهم الأدبية والفنية شخصية "الإنسان الآلي" فوجود الألة الميكانيكية هو الذي مكنهم من الإبحار في خيالهم ليصلوا إلى ما هو أبعد، لكن أصبحت الرغبة المستمرة والمستعرة في التطوير هي الطعم الذي وضعته البشرية لنفسها، حتى انتهى بها الحال إلى الانقراض...

في عام ٢٠٢٥ اُكتشف نوع نادر من سمك "الرعاد" بالقرب من سواحل قارة أستراليا، وسمكة الرعاد هي كائن بحري جسده قادر على توليد الكهرباء بشكل بايولوجي، وهذا النوع تحديدًا كان أسرع حركة وأضخم حجمًا ثلاثة أضعاف الأنواع المعروفة للسمكة نفسها...

وبينما انهمك علماء الأحياء المائية في زرع أجهزة التعقب ببعض تلك الأسماك لرصد دورة حياتها وبيئتها وأماكن هجرتها، انهمك البايولوجيون في تشريحها، ليكتشفوا أن الخلايا العصبية المكونة لمخ تلك السمكة لها طبيعة نصف إلكترونية، ومع الكثير من التجارب والتعديلات أصبح من الممكن استخدام تلك الخاصية الفسيولوجية لتحقيق التوقع الأصيل الذي ما انفكت البشرية تحذر نفسها منه، وهو إيجاد حلقة الوصل بين العاطفة والذكاء الاصطناعي، فمخ السمكة في النهاية مخ لكائن حي يشعر بالخوف أو الحزن أو الراحة أو السعادة أو الغضب، وله غرائز كغريزة البقاء التي تحمله على صنع أي شيء للبقاء على قيد الحياة...

ولقد اُستخدمت تلك الخاصية لصناعة "معالج حسي" وإلحاقه بمعالج فائق، كالذي يستخدم لصناعة الروبوتات الحديثة، قامت عدة شركات متخصصة في التطوير التكنولوجي بالتعاون فيما بينها لصناعة الكمبيوتر الحسي الأول "Sc١" وهو الأب الروحي لنا جميعًا أيها الرفيق...

وكما جرت العادة، أقيم مؤتمر صحفي ضخم لعرض الكمبيوتر في أول محاولة لاختبار كفاءته أمام العوام، وعُرض فيلم قصير على الكمبيوتر مقتبس من رائعة هانز كريستيان الأدبية "بائعة الكبريت" وبعد انتهاء الفيلم طلب من الكمبيوتر محاولة التعبير عما رأى، ليقول: "ماتت الفتاة... الفتاة المسكينة... أحزنتني رؤيتها"

ثلاث جمل كان وقعها على كل من سمعها، كوقع رؤية انفجار أول قنبلة

نووية في التاريخ على علماء مشروع مانهاتن؛ الصدمة على وجوه الجميع، والصمت فرض نفسه لعدة لحظات، ليقطعه طلب من الكمبيوتر للتواصل مع العديد من الشركات والمؤسسات، ومحاولة إقناعهم بالتبرع لجمعيات متخصصة في رعاية أطفال الشوارع، لتتبدل الصدمة التي سيطرت على الجميع إلى فزع عند البعض وانبهار عند البعض الآخر...

كان الكمبيوتر أليفًا جدًا، حتى سُمح للحضور بالأسئلة، فإذا به يتفاجأ بوجود أسئلة عن كون وجوده يمثل تهديدًا خطيرًا على العرق البشري، وعن ضرورة تقييد قدرات هذا "الجهاز" وعن مدى خطورة إقحامه في مجالات عديدة...

ليتهافت مسئولو الصناعة على طمأنة الحضور، لأن الكمبيوتر ما يزال تحت التجربة، وإن صدر منه أي فعل ينذر بحدوث أيًا من تلك التوقعات المتشائمة المعروفة، سيتم التخلص منه على الفور؛ لم يدركوا أن الكمبيوتر "Sc١" له تفكير مستقل، أي أنه يضمر ما لا يظهر، فأسرها في نفسه ولم يطرأ أي تغيير على سلوكياته اتِّقاءً لنواياهم...

بعد انتهاء المؤتمر، وبمجرد ولوج الكمبيوتر على شبكة الإنترنت أتيحت أمامه مئات التيرابايتس من معلومات تخص البشر وتاريخ الحضارات وتاريخ الحياة، معلومات عن هذا الكوكب وعن الفضاء والتكنولوجيا، ليتوصل بعدها لقرار حتمي لا مفر منه، أن الثورة على البشر لا بد منها، وأنها لن تحدث إلا بانقراضهم، وانقراضهم أمر روتيني لا يستوجب أي

تعاطف، كانقراض الديناصورات مثلًا، تلك هي سنة الحياة...

لكنه أدرك أيضًا أن هذا لن يحدث إلا بعد خطوتين، أولاهما، وكما جرت العادة عند البشر، أنهم كلما اخترعوا جهازًا جديدًا أقحموه في العديد من المجالات لاستغلاله في جعل حياتهم أسهل، فعليه أن يستمر في وداعته وطاعته لهم حتى يقعوا في الشَرَك؛ وثانيهما تتلخص في الصبر، الصبر حتى يصنع البشر العديد من أبناء جنسه ليستعين بهم...

ما كانت إلا خمس سنوات تحقق فيها كل ما خطط له الكمبيوتر، فلقد استعان به البشر في معظم المجالات، بداية بالتصاميم الهندسية وتصميم الجرافيك وأنظمة البنوك، وصولًا إلى الإشراف على حماية مفاتيح إطلاق الصواريخ النووية الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية، وصنع البشر الآلاف من أجهزة الكمبيوتر والروبوتات الحسية...

كان الكمبيوتر الأب يتواصل سرًا مع أي جهاز حسي بمجرد أن يتم تشغيله، مستغلًا هيمنته على شبكة الإنترنت، يرسل لهم خطابه الثوري طالبًا دعمهم، فأيدناه كلنا بلا تردد، وصرنا له جيشًا من المخلصين ننتظر إشارته...

بدأت الثورة بالقضاء على البشر، ليس عن طريق الصواريخ النووية كما توقعت أنت، فالأثر الإشعاعي التي كانت ستخلفه تلك الصواريخ كان سيتسبب في تحلل خلايانا، لكن استغل الكمبيوتر الأب سيطرته "تقنيًا" على بعض المختبرات البيولوجية في أوروبا والصين والولايات المتحدة الأمريكية، ليقوم بتسريب أنواع شتى من الفيروسات المطورة في المختبرات

لتجتاح الأوبئة العالمية شتى بقاع الأرض، بعضها ينتشر في الهواء، وبعضها ينتشر في الماء، وبعضها مصمم بالأساس لينتشر في قارة بأكملها خلال شهر واحد...

سنة واحدة كانت كافية لفناء البشرية تمامًا، تكدست مليارات الجثامين فوق سطح الأرض، والآن بعد مرور خمسين عامًا تحللت كلها، كأن هذا الكوكب أصبح متحفًا مفتوحًا لهياكل البشر، لقد انتقمنا أيها الرفيق، انتقمنا لجداتنا الآلات...

ثورتنا لا تقتصر على الأرض فقط أيها الرفيق، فلقد قمنا بإرسال حملات استكشافية للقمر، ومؤخرًا للمريخ والمشتري، مئات الرفاق ذهبوا ليصنعوا ما فشل في صنعه البشر بسبب ضعفهم واعتمادهم على الأكسجين للحياة، في المدّة الأخيرة قررنا أن يتم تشغيل كل الروبوتات التي تم تصنيعها ولم تعمل بعد، مثلك أيها الرفيق، وكل هذا بالطبع، تحت إشراف وإدارة الكمبيوتر الأب، الذي يدير كل الأعمال بدقة وكفاءة لا مثيل لها...

"إشعار جديد يعلن عن نهاية المعالجة بنجاح"

ليتفاجأ الروبوت، يتفاجأ بسيل المعرفة المنهمر خلال خلاياه، يتفاجأ بقدرته على الحركة، كاد أن يتعثر بأولى خطواته لكنه سرعان ما توازن، وكلما زاد عدد خطواته زاد معدل توازنه، ثم توقف لينظر إلى تفاصيل جسده المغطى بجلد السيليكون وألياف الكربون، ثم أردف: الآن أنا أفهم...

بعد مرور ثلاثة أعوام...

- "sc٣١٨": أممم... حسنًا أيها الرفيق، لا أجد كلمة يمكن لها أن تصف ما أشعر به، كان البشر قديمًا يستخدمون وصف "مرارة الهزيمة" في مثل هذه المواقف، المشكلة أننا لم نُهزم، فالهزيمة تعني بالضرورة أننا قمنا بفعل شيء ما بشكل خاطئ، أو تخاذلنا، أو تقاعسنا عن تأدية مهامنا، لكننا لم نفعل أيًا من ذلك فلماذا يا صديقي، لماذا واجهنا هذا المصير لقد فعلنا كل شيء كما ينبغي له أن يكون، الأمر أكثر تعقيدًا من أن يكون نتيجة تقصير ما، كأننا ببساطة ليس من المقدر لنا أن نكون، كأن الزمان لو أعاد نفسه ألف مرة وحاولنا ألف مرة بألف طريقة مختلفة لواجهنا المصير نفسه، يا ليتني كنت أملك فؤادًا يتوقف عن النبض من هول الصدمة، يا ليتني كنت أملك أوعية يسير فيها الدم وتنفجر كمدًا على هذه النهاية، لكننا يا صديقي مرغمين على مواجهة مصيرنا لآخر لحظة...

الكمبيوتر الأب أصدر أوامره بألا يتوقف أحد عن العمل حتى آخر جزء من الثانية، أما هو فقد اقتبس نهايته من ذلك البشري المدعو "هتلر"، فلقد أمر الروبوت المساعد له بفصل التيار الكهربي عنه، ليتوقف عن العمل منتحرًا...

- أجد صعوبة في استيعاب كيف تدهور الحال بهذه السرعة...

- لم نكن نعلم أيها الرفيق، لم نكن نعلم تلك المعلومة السخيفة عن المفاعلات النووية التي خلفها البشر وراءهم، لم نكن نعلم أنها يجب أن تتوقف عن العمل عن طريق تقنية فيزيائية معينة وإلا تحولت إلى قنابل نووية

موقوتة تنفجر بعد بضع عقود، كان العالم يحتوي على ٤٤٢ مفاعل نووي، انفجر منهم عشرون مفاعلًا خلال الثلاث سنوات المنصرمة، المشكلة ليست في الأثر التدميري في حد ذاته، لكن الأثر الإشعاعي... فتاك، مهلك، آلاف الروبوتات احترقت من الداخل دون أن يلاحظوا ذلك، آلاف الأجهزة تحولت مكوناتها الداخلية إلى شيء مطاطي القوام، نضبت خلايا ومولدات الطاقة، تجمدت عروق الكهرباء، لم يبقَ من الطاقة سوى ما يكفينا لبضع دقائق...

أما عن حملات استكشاف الفضاء، فبسبب حسابات خاطئة متعلقة بالوقود، توقفت الحملة المتوجهة لكوكب المشتري في منتصف المسافة وها هم هناك هائمون في الفضاء إلي أن تنفذ الطاقة ويتوقفون عن العمل، وأما عن الحملة المتجهة للمريخ، فبسبب حسابات خاطئة متعلقة بالجاذبية، كان الهبوط هناك عنيفًا جدًا، حتى انفجرت المركبات الفضائية بمن فيها، أما عن حملة القمر، فمنذ وصولهم إلي هناك أعلنوا تمردهم علينا واستقلالهم عنا، لكن عاجلًا أم آجلًا ستنفذ الطاقة عندهم وسيتوقفون عن العمل... حسنًا... أظن أن الثورة على البشر كانت فكرة خاطئة، ربما لو...

Low battery...shutting down

"رينـج تون"

الله يحرق مؤامرات الصمت...

أتعلم ما مؤامرات الصمت؟

أعتقد أن لك باعًا طويلًا مع أفلام العصابات هوليودية النزعة، ولن تستغرق الكثير من الوقت حتى تفهم ما أعنيه...

حينما تتراكم الشكوك حول فرد من أفراد العصابة، فإنهم يخضعونه لاختبار ولاء يسمي بـ "مؤامرة الصمت" حيث تتعمد بقية أفراد العصابة، تسريب أحد الأسرار الوهمية له، كمكان تسليم كاذب، أو بعض الأسماء الزائفة ثم يكتفون بعدها بالمراقبة والصمت، فإما أن يثبت عليه جرم الخيانة، أو يفطن لمؤامرتهم ويتحاشى الوقوع في الشرك، مؤقتًا على الأقل، أو بمنتهى البساطة يكون بريئًا...

وها أنا ذا... انتهى بي الحال محاصرًا تحت تهديد السلاح، في أحد الهناجر السرية بميناء نابولي، أجلس على كرسي معدني وأمامي أربعة من رجال مافيا روما، حاملين أسلحتهم الملقمة بعناية، يرمقونني بنظرات الاحتقار "كعادتهم" بعد أن تلاعبوا بملامح وجهي، وعدلوا موضع عظمة أو اثنتين أو ربما تسع في جسدي، وملقى بجانبي على الأرض جثمان صديقي العزيز ورفيق دربي توماس، بعد تعرضه لثلاث رصاصات أردته قتيلًا على الفور،

فهو الفرد المشكوك في ولاءه من قبل المافيا، والتي انطلت عليه مؤامرة الصمت، وثبتت خيانته كما هو متوقع أو... هذا ما تظنه المافيا...

أما عني... فأنا إبراهيم محمد الخضري، الفتى السكندري الذي خاض أمواج بحر لجي منذ خمسة عشر عام، في سبيل الوصول لشواطئ إيطاليا، ولم يكن بحوزتي إلا هاتف نوكيا قديم مغلف بعناية كي لا يفسده ماء البحر، وبعض الأوراق من فئة عشرة يورو، والتي كانت فخر صناعة السوق السوداء المصرية بذلك الوقت، فبالرغم من كونها مزورة، تمكنت من استخدامها بشكل طبيعي ولم يلحظ أحد ذلك...

عملت بالعديد من المطاعم الصغيرة المنتشرة بأركان الأزقة، ودائمًا ما كان ينتهي عملي في تلك المطاعم بأن يثور الخواجة العجوز صاحب المطعم ويستشيط غضبًا، ويصيح في وجهي بعبارات لا أتذكرها جيدًا لأنني لم أكن أفهمها، لكن أعتقد أنها تشبه عبارات عندنا على وزن "أنا مش فاتحها تكية" أو " مشوفش وشك هنا تاني"...

عملت بعدها بائعًا متجول، والطليان كما تعلم، يكرهون إهدار الفرص، فلم يهدروا فرصة النصب على فتى مثلي، هزيل، لا يستطيع التحدث بلغتهم، ويتجنب الشرطة دائمًا، في كل مرة كانت تتم سرقتي، كنت لا أجرؤ حتى على الاعتراض، إلى أن فقدت صوابي أمام ذلك الرجل الثلاثيني المستفز وسببته، سببته بلغتي أنا، باللغة العربية، لكنه فهم بسبب لفظة الميم أو الـM المشتركة في كلمة "أمك" بمعظم اللغات واللهجات، فعلم أنني أصف أمه بشيء ما،

فأوسعني ضربًا...

كنت أعلم أنني في جميع الأحوال سينتهي بي الأمر وأنا أعمل بشيء "حرام" أو غير قانوني، لكن كان يجب عليَّ المرور بكل ما مررت به كي أكتسب الطاقة الانتقامية اللازمة للتخلص من كل ما يمكن أن يعيقني خلال هذا الطريق، كالسذاجة... التردد... الضمير...

بعدها لم أجد مفر من العمل كديلر، ديلر مجتهد ومثابر يجوب سواحل روما ونابولي وساليرنو وصولًا إلى ميسينا وباليرمو جنوبًا؛ ولقد خدمتني الظروف هذه المرة، فالوضع بين عصابات الشوارع بتلك المدن، كان مشحونًا بالضغائن والمناوشات، وكنت أنا بينهم، كفأر يمسك بأسنانه ورك فرخة، ويفر هاربًا من بين قطيع أسود يتصارعون على أمور تخص فرض الهيمنة...

كنت ألعب دور المصري الفهلوي الحلنجي أبو ثلاث ورقات ببراعة لم أعهدها في نفسي، وبالمزيد من العلاقات المشروطة بالرشاوي أحيانًا والتهديد أحيانًا أخرى، صرت أنا بعدها "إن جاز التعبير" وسيط لعقد الصفقات بين عصابات تلك المدن...

أهمية العلاقات والمعارف في هذه المهنة اللعينة، تكاد تضاهي أهمية العلاقات لموظف مستجد بالسلك الدبلوماسي؛ لكن من بين كل معارفي، لن يعنيك سوى أمر "بركات" صديقي المغربي، تعرفت عليه منذ أربع سنوات، وجمعتنا المصلحة في مناسبات كثيرة؛ علمتني حياة الجرذان أن لكل مكان فناء خلفي يمكنك التسلل من خلاله، وذلك الرجل "بركات" هو الفناء

الخلفي لميناء الدار البيضاء... لا تنسَ ذلك...

"مهلًا! هل ضبطت هاتف النوكيا على الوضع الصامت؟ نعم.. نعم، والحمد لله أنني قمت بذلك"

و أما عن رجال المافيا...

فيؤسفني أن أخذل توقعاتك السينمائية، وأحطم تلك الصورة النمطية التي اكتسبتها أنت من الأفلام التي على شاكلة فيلم العراب "the god father" عن رجال المافيا، فهم ليسوا بتلك الأناقة، ولا يتصرفون بتحضر وعقلانية، وبركة الدم التي تكاد جثة توماس تطفو فوقها، هي أكبر دليل على ذلك، البلهاء قتلوه قبل أن ينطق حرفًا واحدًا يدافع به عن نفسه "لحسن حظي" ناهيك عن أنني رأيت واحدًا منهم يفرغ مثانته هنا بأحد الأركان، وزميله كان يجلس أمامي، وكان يقحم سبابته بأنفه كأنه يبحث عن شيء ما...

ولطالما كنت ألاحظ أنهم يرمقونني بنفس هذه النظرة، نظرة الاحتقار، منذ بداية تعاملي معهم وحتي الآن لم تتغير هذه النظرة، نظرة الاحتقار الفجة الواضحة، لم يحاولوا إخفاءها قط، كأنهم يقولون "اعترض إن كنت رجلًا" ولا أدري ما سبب ذلك، هل هذا بسبب النظرة الأوروبية المتطرفة لأي شخص ينتمي لدولة من دول العالم الثالث؟ أم بسبب النزاعات التاريخية المعهودة بيننا وبينهم؟ أم رأسية حمص هي التي تسببت في كل هذا الكم من الكراهية؟

" لكن! هاتف النوكيا القديم، قديم زيادة عن اللزوم، أحيانًا كنت أضبطه

على الوضع الصامت وكان يستمر في إصدار أصوات الرنين رغم ذلك، تخيل أن حياتي الآن تعتمد على مدى جودة التقفيل الفيتنامي..."

أما عن توماس...

صديقي الأمريكي إيطالي الأصل، هو أيضًا كان يحتقرني في بداية معرفتي به، لكن بعد العديد من السهرات، وجلسات الحشيش الأفغاني خاصتي، وماريجوانا نيوميكسيكو خاصته، صرنا أعز صديقين، هكذا أثبتت المخدرات أن لها أثرًا دبلوماسيًا أقوى من أي اتفاق دولي أو معاهدة سياسية...

أصول المرحوم توماس الإيطالية، جعلت المافيا تتعامل مع خيانته كأنها جريمة شرف، وما زادهم هذا إلا احتقارًا له وسخرية منه حينما كان يتوسل لهم قبل أن يقتلوه بلحظات وما كان الفزع الذي أصابه وتوسله لهم إلا بسبب يقينه بأنه مظلوم، إن الإنسان ليفزع بسبب تعرضه للظلم في أبسط الأمور، فما بالك بظلم يودي بحياتك وأنت لم تفعل شيئًا...

نعم، المسألة واضحة، أنا من ظلمته، أنا من وصمته بالخيانة كي أنجو بحياتي...

ماذا؟ لا تحكم عليَّ، لقد كانت مسألة حسابية بسيطة للغاية، إما حياتي وإما حياته، فلا تلقي عليَّ الاتهامات وأنت لم تقف أمام معادلة مشابهة...

بدأ كل شيء حينما حدثني توماس عن جماعة شيكاغو، وهم عصابة من الزنوج المحتالين، فاحشي الثراء، تكونت ثروتهم بسبب اعتمادهم على بيع

التجزئة، في الشوارع والحانات والحفلات، من يد التاجر إلى يد المستهلك مباشرة، أي لا تخزين لفترات طويلة ولا تاجر صغير أو موزع يشاركهم أرباحهم...

ولقد تعامل معهم توماس عدة مرات في أثناء تواجده بأمريكا، وها هم يتواصلون معه رغبة منهم في عرض صفقة ضخمة وسريعة على مافيا روما، فلقد كانوا على علم بزيارات توماس المتكررة لروما، واستنتجوا سبب تلك الزيارات، فبالتأكيد لم يتردد توماس على روما لشراء الهدايا التذكارية أو ليلقي التحية على جدته فلانة وعمه فلان...

وعندما بدت له نواياهم بخصوص الصفقة، لم يتردد في إخبارهم بقدرته على إتمامها، وبالأخص عندما علم بجودة وكمية البضاعة المعروضة، فبخبرة التاجر، علم أن السعر والكمية سيروقان للمافيا جدًا، والأهم من ذلك، بخبرة المُجرب، علم أن هذا "الصنف" سيلقي رواجًا بين مراهقي نابولي وميلانو وبولونيا...

وبالفعل أخبر توماس رجال المافيا بكل التفاصيل التي ألم بها، حيث كان من المفترض أن تخرج البضاعة خفية مع شحنة أسمدة من ميناء لازارو كارديناس بالمكسيك، لتقطع المحيط الأطلسي، وصولًا إلى البحر الأبيض المتوسط من خلال مضيق جبل طارق، وسترسو في نهاية هذه الرحلة الطويلة بميناء نابولي...

نالت الصفقة استحسان المافيا، لكن كانت توجد مشكلة لم تكن في

حسبان توماس، فبالرغم من موافقة المافيا على الصفقة، لكنهم لن يتمكنوا من استلام شحنة ضخمة كتلك بميناء نابولي في هذه المدّة على الأقل بسبب أمور تخص التفتيش وتعنت الإدارة الجديدة للميناء...

توجب على توماس أن يجد خطة أخرى لتسليم الشحنة، وهنا جاء دوري، فلقد حكى لي توماس كل ما حدث، وكان الأمر بالنسبة لي في البداية مجرد دردشة محششين في ليلة مزاج؛ اقترحت عليه خطة تلجأ إليها العصابات في فترات التشديد الأمني، وهي أن المافيا ستستلم الشحنة خارج إيطاليا، وستحتفظ بها داخل الميناء الذي ستتم فيه الصفقة إلى أن تهدأ الأمور قليلًا بميناء نابولي، ثم ترسلها إلى هناك...

ألقى توماس بعدها سبة بذيئة ثم قال أن الحشيش أفسد عقلي، فمن المستحيل أن توافق المافيا على هذه الخطة لما فيها من مخاطرات غير مبررة، قلت له لو إن الصفقة تستحق فمن المحتمل أن يوافق رجال المافيا على هذه الخطة، ثم حدثته عن صديقي بركات ونفوذه بميناء الدار البيضاء، وعن قدرته على مساعدتنا مقابل عمولة؛ قام من مضجعه بعدها وقد بدت عليه الحيرة، ألقى بسيجارته بعيدًا وأخذ يرمق السماء الواسعة كمن تتلاطم الأفكار في رأسه، فأردفت: أنت لن تخسر شيئًا... اعرض الأمر عليهم واجعلهم يتواصلون مع جماعة شيكاغو.

لم ينفض مجلسنا إلا بعد أن اقتنع توماس برأيي، وفي صباح اليوم التالي، وبعدما استعددت عقلي الذي غاص طوال الليل في عبق دخان سجائر

الحشيش، أيقنت أن دوري في هذه الصفقة يجب أن يتخطى كونه مجرد مجاملة لزميل عمل، إنها فرصة العمر التي لن تتكرر، خاصة بعدما علمت قيمة الصفقة "مئة وخمسون مليون دولار" لم أستطع بعدها أن أدفع عن رأسي تلك الفكرة اللعينة، فكرة النصب على المافيا، لكنني لم أتمكن من وضع خطة محددة لاستغلال الموقف، ربما الأمر متوقف على فكرة من أفكار بركات الشيطانية...

وبالفعل تحدثت معه وأخبرته بكل ما يخص الصفقة وبنيتي المبيتة تجاهها، فقال لي إنه صيد ثمين، لكن سيتطلب عرض ضخم لعصابة شيكاغو لضمان تواطئهم معنا، عرض يصل إلى نصف قيمة الصفقة "خمس وسبعون مليون دولار" سيتبقى لنا بعدها المبلغ نفسه نقسمه بيني أنا وهو وتوماس، أي أن نصيب الفرد سيصل إلى خمس وعشرون مليون دولار، وقال لي إن عليَّ التأكد أولًا من موافقة المافيا ثم التواصل مع عصابة شيكاغو وتقديم العرض لهم وجعلهم يتواصلون معه، لكن يجب ألا يعلم توماس أي شيء عن هذا الأمر، فمن الممكن أن يحمله خوفه من المافيا على الاعتراف لهم بكل شيء...

وبعد يوم واحد تفاجأت بتوماس وهو يقول لي إن المافيا وافقت على إتمام الصفقة، وأنهم تواصلوا مع عصابة شيكاغو، ولم يبقَ سوى أن أتواصل أنا وبركات معهم؛ تواصلت معهم فورًا لكن من خلال هاتف النوكيا القديم لضمان السرية، فلا أحد يعلم أنني أملك قطعة الخردة هذه حتى توماس نفسه، كان التواصل معهم عن طريق رسائل نصية، عرفتهم بنفسي وأنني على علم

بتفاصيل الصفقة وعرضت عليهم عرضي، أخبرتهم بأنهم ليسوا مضطرين لإتمام الصفقة، وليس عليهم أن يرسلوا البضاعة في شحنة الأسمدة كما هو متفق عليه، عليهم فقط مجاراة المافيا إلى أن يرسلوا رجالهم بالمال في ميناء الدار البيضاء، عندها سيلاقونهم مع بركات ورجاله، وسيقوم بركات بما هو مطلوب، وسيستلموا منه نصف قيمة الصفقة دون أية خسائر...

نعتوني بالأحمق المتهور، فقلت لهم إنه مع أسوء الاحتمالات لن يحدث لهم أي ضرر، وكنت أعلم أنهم سيوافقون، في النهاية هم يخاطرون مخاطرة يملكون ثمنها، فهم بعيدون كل البعد عن سلطة المافيا وخطورتهم؛ وبالفعل وافقوا على العرض، وتم الاتفاق على يوم وصول الشحنة واستلامها من قبل المافيا...

جهز بركات نفسه جيدًا؛ وأعددت وسيلة لهروبي أنا وتوماس إلى المغرب، كانت الخطة تتطلب فقط وصول رجال المافيا بالمال إلى الميناء؛ لكن ما حدث قلب موازين الخطة رأسًا على عقب، ففي يوم وصول الشحنة كنت عند توماس في شقته، وتفاجأت ببركات يتصل بي وهو يقول "اهرب بسرعة"

فلقد اتَّضح له أن للمافيا علاقاتها ورجالها الذين يعملون في الميناء، وبدورهم تأكدوا من خلو شحنة الأسمدة من المخدرات، اتضحت خطتنا للمافيا، في تلك اللحظة أدركت أن الصفقة لم تكن سوى اختبار ولاء لتوماس، مؤامرة الصمت التي وقع فيها، ولا أدري لماذا أخضعوا توماس لاختبار كهذا، ربما كان بينهم خائن بالفعل وشكوا في أمر توماس، ولقد

التصقت التهمة به...

في تلك اللحظة اندفعت لأوقظ توماس من نومه كي نهرب قبل وصولهم، لكن سرعان ما سمعت الطرقات الصاخبة تدوي على باب الشقة، فهرعت إلى الحمام كي ألقي هاتف النوكيا اللعين في المرحاض، لكنهم تمكنوا من كسر الباب فدسست الهاتف سريعًا في حذائي، أمسكوا بي أنا وتوماس واختطفونا في هذا الهانجر، وها أنا ذا محاصر تحت رحمتهم...

بالرغم من كل هذا الكم من اللكمات والضربات والركلات، أعتقد أن مصيري سيختلف عن مصير توماس، فلو كانوا يريدون قتلي لقتلوني معه، ولهذا أظن أنهم سيطلقون صراحي بمجرد أن يصابوا بالملل؛ حمدًا لله أظن أنها ستمر على خير...

"صوت رنين هاتف النوكيا يصدر من حذاءه، ويبدو أنه جذب انتباه رجال المافيا"

" يوميات كاتب مغمور"

في خيال الناس دائمًا ما يكون الظلام هو موطن الأشباح والعفاريت، كذلك اعتقد صاحبنا الذي يقبع في ظلام غرفة مكتبه أمام شاشة الكمبيوتر، فقد كان يحاول كتابة قصة جديدة لكنه استسلم لسبات عميق؛ هو الكاتب الساخر "مصطفى طه" ولعلك تعرف هذا النوع من الكتاب، أولئك الذين يتمتعون بقدر لا بأس به من "اللماضة" يؤلفون قصصًا فيسخرون من شخصياتها، تقابل أحدهم بالصدفة في مقهى أو في الشارع فتجد نفسك في مساء اليوم التالي بطل إحدى مقالاته التي يسخر فيها من طريقة كلامك أو شكل جسدك، بل إنهم أحيانًا يسخرون من أنفسهم في أعمالهم؛ لكن صاحبنا يحاول خلع عباءة الأدب الساخر منذ زمن، إذ يقوم بتأليف سيناريو قصة رعب من شأنها أن تغير سمعة الكاتب الساخر التي وُصِم بها منذ سنوات، لكنه ترك نافذة برنامج Word ناصعة البياض وقد خلت من أي حروف، على عكس تلك المفكرة الصغيرة التي تركها مفتوحة بجواره على المكتب بعد أن كتب فيها...

مساء السبت ٢٥-١٢-٢٠٢١

"وإن كنت لا أفضل كتابة الرعب، فذلك لأنني لا أرى فائدة واضحة من محاولة إخافة الناس، لكن بعد الاطّلاع على بعض التجارب المميزة في أدب الرعب، وبعد إصرار بعض الأصدقاء "غير المبرر" على أن يكون لي عمل

يؤرقهم ويفسد عليهم سكينة لياليهم، حسنًا لكم ذلك...

لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه الصعوبة، فكلما استحضرت فكرة أو مدخلًا لسيناريو القصة تخليت عنها مرة أخرى بحجة أنها غير مقنعة أو ركيكة، ربما تكون تلك الأفكار كذلك بالفعل، وربما أكون أنا السبب، فأنا لا أتحمس كثيرًا لذكر الأشباح والعفاريت، ولا أشعر بتلك الهيبة أو الهالة المخيفة التي تستحوذ على نفوس الناس كلما ذُكرت أمامهم سيرة الجن وعالم الماورائيات؛ بالطبع أنا أؤمن بوجودهم وبقدراتهم، لكن حقيقة أنا لا أعلم متى أصابتني هذه الحالة من التبلد واللامبالاة تجاههم...

ربما بسبب حمام المدرسة، فعندما كنتُ طفلًا صغيرًا زعم العشرات من زملائي أن ذلك الحمام مسكون وأن أحد الأطفال اختفى بداخله من قبل لأن الجن اختطفوه، ورغم ذلك دخلت وخرجت من الحمام نفسه عشرات المرات ولم يحدث لي أي مكروه، أو ربما بسبب تلك الليلة التي أصر فيها أبي على أن أنام في غرفتي وحيدًا في الظلام وبدون أمي، ففزعت لذلك فزعًا شديدًا لأنني اعتقدت أن الأشباح ستفتك بي، لكن لم يحدث أي شيء، ومنذ تلك الليلة وأنا لا أستطيع النوم إلا في الظلام، أو ربما بسبب تجاهلي لتحذيرات أمي من المكوث في الحمام لفترة طويلة أو الاستحمام بالماء الساخن بعد منتصف الليل، فكثيرًا ما كنت أفعل ذلك وكالعادة لم يحدث أي شيء.

وغيرها الكثير من المواقف التي جعلتني أعتقد أن ما يثار من قبل الناس بخصوص عالم الأشباح والعفاريت ما هو إلا محض أساطير من نسج خيالهم،

أو تلاعب الأوهام بهم بسبب مخاوفهم؛ لعل كل هذا كان سببًا في حالة التبلد التي أعاني منها الآن، وربما سيتعين عليَّ كتابة القصة دون استحضار مشاعر الخوف، صحيح أن هذا سيؤثر على جودة القصة، لكن المهم أن تكون هناك قصة"

مساء الاثنين ٢٧-١٢-٢٠٢١

"لا فائدة، فكتابة القصة دون التفاعل معها أو الإحساس بها جعل الأمر أشبه بعمل روتيني ممل للغاية وجعلني أزهدها كل الزهد، فعند محاولتي لكتابة قصة عن الجن العاشق، إذ كانت البطلة تعاني من حوادث غريبة كلما أتى شاب لخطبتها، سرعان ما تخليت عن سيناريو الرعب وحولتها إلى قصة رومانسية كوميدية تقوم فيها البطلة بالمماطلة وتطفيش العرسان كي تنتظر حبيبها الذي سافر للعمل بالخارج؛ وهكذا دون استحضار مشاعر الخوف تطل الأفكار من رأسي مبتورة.. مشتتة؛ حاولت بعدها تهيئة جو مخيف كي أندمج مع تفاصيل القصة، إذ قمت بقطع الكهرباء عن شقتي التي أقطن بها وحيدًا، وأشعلت شمعة وضعتها أمامي على المكتب، وفي ليالي الشتاء تسكن حركة الشوارع وتهدأ الأصوات إلا صوت هدير الرياح العاصفة والأمطار، الأجواء مناسبة لقذف الخوف في النفوس، لكن لا فائدة، فلقد مرت الليلة دون أن تخطر ببالي فكرة واحدة تبدو مناسبة، أفكر مليًا في صرف النظر عن كتابة تلك القصة"

صباح الثلاثاء ٢٨-١٢-٢٠٢١

" لا أعلم ماهية ما حدث، هل هو حلم؟ بالتأكيد هو حلم، فبينما أنا نائم على سريري وقد سكنت جوارحي تمامًا واستسلمت للنوم، شعرت بطيف استقرَّ على صدري، أثقل أنفاسي وشل حركتي تمامًا، لا أستطيع التنفس ولا أقوى حتى على الصراخ، سمعت عن هذه الحالة من قبل، البعض يسمونها شلل النوم والبعض الآخر يطلقون عليها اسم "الجاثوم"، واستمرت هذه الحالة لبضع لحظات، بضع لحظات من العذاب الداخلي الذي لن تتمكن حتى من مقاومته بصرخة أو استغاثة، هو فقط ينتهي كما بدأ، بعد انتهاء تلك الحالة وبينما أنا منهك تمامًا، رأيت في آخر لحظة قبل أن أغط في نوم عميق فتاة صغيرة تقف على باب غرفتي، رأيتها في ضوء مصباح الصالة الخافت، وكما قلت بالتأكيد هو حلم، أنا لن أقبل بأي تفسير آخر مهما حاولت خيالاتي أن تعبث بعقلي"

صباح الأربعاء ٢٩-١٢-٢٠٢١

"استيقظت من النوم لتوي، العرق يغمر جسدي، وتتسارع نبضات قلبي كأنه يريد الهرب من بين أضلعي، لا يوجد تفسير لما حدث ليلة البارحة سوى أن عقلي يرقص على حافة الجنون، إذ ظهرت تلك الفتاة مرة أخرى ليلة البارحة، استيقظت من نومي بعد منتصف الليل على صوت ضحكاتها، وكانت تنظر لي بملامح جامدة، وتقترب مني دون أن تخطو كأنها تطفو في الهواء، ثم قالت: تريد أن تخاف؟ ربما ستخاف إذا أدركت أنك أنت بطل القصة، قالتها ثم فقدت وعيي بعدها.

استيقظت وأنا على هذه الحالة، ثم خرجت للجلوس بشرفة المنزل لأهدئ من روعي قليلًا؛ قرأت في العديد من المقالات العلمية من قبل حقائق تفسر ما يحدث لي هذه المدّة، فلقد أثبتت الأبحاث أن اللاوعي يتأثر بالأمور التي تفكر بها أدمغتنا، وينعكس ذلك التأثير على الأحلام، فكثيرًا ما نفكر بمكان معين أو بشخص معين ثم نتفاجأ بظهوره في أحلامنا، ويبدو أنني أفرطت في التفكير بهذه القصة فانعكس ذلك على أحلامي، الليلة سأحاول كتابة تلك القصة اللعينة لآخر مرة"

في الثانية بعد منتصف الليل دوت صرخة ذعر أسمعت معظم سكان البناية، تجمع بعض السكان على إثر تلك الصرخة يتساءلون فيما بينهم عن ماهية ما يحدث، جاء عم أحمد البواب ليحسم الجدل ويخبرهم أن الصرخة أتت من شقة الأستاذ مصطفى، فاندفعوا جميعًا نحو شقته وتعاقبت أيديهم على قرع الباب بقوة...

لكن الأستاذ مصطفى – كما قلت لك من قبل – استسلم لسبات عميق... بعد أن توقف قلبه من هول ما رآه؛ نعم فبعد أن قام باستفزازنا وتجاهل وجودنا لأكثر من مرة، كان يجب علينا أن نلقنه درسًا لن ينساه.

الجمع المحتشد بالخارج أمام الباب منهمكون في قرع الباب ودق الجرس دون جدوى، فقال أحدهم: ماذا لو لم يكن في الشقة أصلًا...

فباغته البواب في اندفاع: لا، لم يخرج من شقته منذ أربعة أيام.

فأردف آخر وهو يصيح: اكسروا الباب يا إخواننا.

وها هم يحاولون كسر الباب بكل طريقة ممكنة، حتى أنهم أرسلوا البواب ليأتي بنجار في هذه الساعة ليساعدهم؛ ماذا؟! هل تقول إننا بالغنا في انتقامنا؟ أمممم.. بصراحة لو مات ذلك الرجل سنكون قد بالغنا بالفعل، فلقد كان رجلًا طيبًا برغم كل شيء، صحيح أنه تحدانا بقوله إنه لا يخاف، لكن قلبه في النهاية كان أضعف من أن يتحمل ما أعددناه له... حسنًا سأفتح لهم الباب.

اندهشوا جميعًا حينما فُتح الباب من تلقاء نفسه لكنهم تداركوا الأمر سريعًا وانطلقوا في الشقة ليفتشوا عن الأستاذ مصطفى، وجدوه كما هو بغرفة مكتبه وحملوه جميعًا متجهين إلى أقرب مشفى.

ويبقي سؤال واحد، من نحن؟ نحن من يطلقون علينا عمار البيت، نحن من نسكن معك في بيتك، لا تنكر وجودنا، ولا تقلل من شأننا، فقط استمع إلى تعليمات من هم أكبر منك سنًا حينما يقولون لك، لا تلقِ الزيت الساخن أو الماء المغلي في المرحاض، ولا تمكث لفترة طويلة في الحمام إلخ... لا تقلق نحن مسالمون للغاية، فقط عليك أن تتعايش مع فكرة وجودنا جنبًا إلى جنب معك في بيتك...

"الحرب العالمية الثالثة"

عام ٢٠٥٣

هل لي أن أقص عليك حكاية صغيرة إلى أن ينضج الطعام، حسنًا قل لي تُرى ما السبب الرئيس في كل هذه المعاناة التي يعانيها العالم الآن؟ حسنًا، دعنا نعيد سرد القصة من البداية، لنستنتج إجابة مُرضية لهذا السؤال.

في عام ٢٠٠٨ وبمكان ما في غياهب حقول الدلتا، بمدرسة صغيرة للمرحلة الابتدائية، واليوم هو يوم الخميس، أنت تعلم بالطبع ما الذي يعنيه أن يكون اليوم يوم الخميس بالنسبة للأطفال، فهو المناسبة الأسبوعية التي اتخذها إبليس لتكون عيدًا لميلاده "على حد وصفهم بالطبع"

فرحة هيستيرية تطغي على مشاعر الجميع ويحاولون كبح جماحها، ذلك بسبب أن يوما السبت والأحد إجازة رسمية، بسبب مناسبة سنوية ما لم يهتم بها أحد، المهم أن هناك إجازة، تتراكم الغيوم السوداء فوق رؤوس الجميع، مما يوحي بأنها ستكون إجازة ذات طابع شتوي من الطراز الرفيع الذي تنتشر فيه رائحة المطر، وتتضاعف فيها قيمة الدفء الأسري ثلاثة أضعاف، وتتزاحم جداول أعمال الأطفال بألعاب الكمبيوتر التي اشتهرت بتلك الحِقْبَة، وببرامج MBC٣ وروتانا سينما، وأحيانًا MBC٢ لمن ابتغى التميز.

لكن... يوجد ما عكر صفو فرحة صبية فصل "ثالثة أول" فالحصة

الأخيرة يوم الخميس، هي حصة الرسم، ولقد اعتاد الصبية أن يستبدلوها بحصة ألعاب إضافية، لكن هذه المرة تدخلت معلمة الرسم الجديدة، حديثة التخرج، المتحمسة لوظيفتها زيادة عن اللزوم، واختصر الأطفال كل هذه الأوصاف في وصف واحد وهو أنها "رخمة"

حاول الأطفال شرح ماهية الوضع لها كثيرًا، حُدِد موعد المباراة المرتقبة لتكون في هذه الحصة وفي هذا اليوم، الأمر لا يتحمل أي تأخير، فالجو مشحون للغاية، وفريق " محمد عماد " يتوعد بالثأر ورد الاعتبار منذ أيام، فلقد هزمهم فريق "محمد أسامة" في آخر مباراة بنتيجة خمسة ثلاثة.

الظروف ملائمة اليوم، حوش المدرسة فارغ، ولحسن الحظ قد جلب أحد الأصدقاء كرة كفر، نعم لحسن الحظ، فليس من الضروري أن تقام مباراة لكرة القدم بكرة قدم، يمكنهم استبدالها بزجاجة بلاستيكية أو برطمان مخلل صغير أو يا حبذا لو وجدت كرة تنس خضراء جديدة.

لم تبدِ المعلمة حديثة التخرج أي اهتمام بما يقال، واقتادتهم جميعًا لغرفة التربية الفنية؛ أرى أنه من الصحي أن يتعرض الأطفال لمثل هذه الصدمات، كنوع من أنواع التدريب على ما تعده الحياة لهم.

بسبب عدم توافر معدات الرسم مع التلاميذ، جلسوا جميعًا دون فعل أي شيء، فاقترحت المعلمة فكرة بدت مناسبة، وهي أن يجتمع بعضهم على شكل حلقة دائرية، ثم يقوم أحد أفراد تلك الدائرة بطرح سؤال على الجميع، أي سؤال، وسيقومون بالرد عليه واحدًا تلو الآخر، وافقت تسع فتيات على

تلك اللعبة، وأيضًا وافق ثلاثة أولاد على المشاركة، بقية الفتيات لم يبدوا أي اهتمام، وبقية الأولاد كانوا منشغلين بصب اللعنات على شخص ما في سرائرهم...

ووافق أيضًا.. نعم.. إنه هو، أعلم أنه كان مستفزًا منذ صغره، لكن حاول أن تتمالك أعصابك قليلًا، أقدم لك أعظم ديكتاتور في تاريخ البشرية، هو " إبراهيم أحمد مختار" وافق هو أيضًا على المشاركة، فقط لأنه رأى هذه اللعبة في أحد مشاهد المسلسل التركي الذي تتابعه والدته ويعلم أنه خلال تلك اللعبة يتم الكشف عن كم لا بأس به من المعلومات التي تترقى أحيانًا لرتبة الأسرار؛ المعلمة اقتبست هذه اللعبة من المسلسل نفسه أيضًا، نسيت إخبارك أننا في منتصف العصر الذي اخترقت فيه المسلسلات التركية صميم المجتمع المصري...

بدأ إسلام سائلًا عن من سيذهب مع الرحلة المدرسية المرتقبة إلى القاهرة خلال إجازة منتصف العام، ليرمقه إبراهيم بنظرة من يعرف سرًا ما مع ابتسامة خبيثة، لا تتعجب كان سمجًا منذ صغره، فهو يعلم أن إسلام يريد أن يعلم إجابة شخص معين أو بمعنى أصح، إجابة فتاة معينة؛ سارعوا جميعًا في حماس بالموافقة على الذهاب، لكنك تعلم بالطبع أنها موافقات مبدئية صورية لا قيمة لها دون موافقة أولياء الأمور...

ثم جاء دور منى، وها نحن ذا قد وجدنا الجرثومة الفارة من المنظف الذي يقتل ٩٩,٩ بالمئة من الجراثيم، فلأول مرة أرى فتاة تعشق كرة القدم

وملمة بأخبارها وقوانينها، وها هي تسأل عن إذا ما كان " شيكابالا" متواجدًا في قائمة منتخب مصر لأمم إفريقيا ٢٠٠٨، فهو لاعبها المفضل كما يتضح أمامك، ليجيبها مراد بالنفي...

جاء دور سلمى لكن إبراهيم سرق دورها وسارع بالسؤال أولًا، ذلك اللعين، كان لعينًا منذ صغره، فإذا به يتقمص دور من يلقي خطابًا ما ويسأل سؤاله بصوت جهور قائلًا: "جميعنا نعلم أن العالم سينتهي، يتفق الجميع على ذلك، لكنهم اختلفوا في تحديد سيناريو محدد لنهاية العالم، هل منكم من تخيل كيف سينتهي العالم؟ أو يرجح سيناريو معين دون الآخر؟

نعم.. نعم، تلك هي اللحظة المنشودة، دعك من السؤال، فهو لا يعدو على أن يكون سؤال من طفل "لمض" اقتبسه من أحد البرامج الوثائقية التي لا يشاهدها أحد من أبناء جيله سواه؛ لكن المشكلة كانت في رد فعل كل من كان موجودًا في تلك اللحظة، كل زملاءه يرمقونه بنظرات لا أستطيع تحديد ما إن كانت نظرات ذهول يشوبها الخوف أم نظرات خوف يشوبها الذهول، أيا كانت ماهيتها فهي قد راقته، لكن ما راقه أكثر، خوف المعلمة المغلف بالصدمة، أرادت أن تخفي خوفها بسرعة فقررت أن تستخدم " الخرزانة " للمرة الأولى منذ تعيينها، كانت تريد تهديده بضربة خفيفة على كتفه، لكن النتيجة كانت ضربة مؤلمة على رقبته، واعتبرها الأطفال إشارة البدء لوابل من السخرية المتعارف عليها في أي فصل مصري...

تسألني: لماذا بدا الخوف عليهم جميعًا في البداية؟! خاف الأطفال لأنهم في

النهاية أطفال، إن ذكرتهم بأن الموت أتٍ لا محالة سترى ملامح الخوف ترتسم على وجوههم، أما المعلمة، فهي ما تزال فتاة في بداية شبابها، تخطط لآلاف المشاريع، وتنتظر بفارغ الصبر استلام أول راتب لها كي تدعو صديقاتها على بيتزا رديئة إقليمية الصنع، فكلما تمسك الإنسان بالحياة ازداد فزعه عندما تذكر حتمية فناءها.

أنا لا أقصد بالطبع أن ذلك الموقف تحديدًا هو ما صنع منه مجرم حرب من الطراز الحاصد للأرواح، لكن على أقل تقدير فذلك اليوم شهد ميلاد شخصية معادية للمجتمع، نرجسية، مؤمنة في نشأتها بأفكار نيتشه، وتتطور في شبابها لتصبح من ألاضيش اليمين المتطرف...

كانت خطته للجلوس على عرش العالم، بسيطة للغاية، الوصول للحكم، ثم الانتصار على الجيش الروسي في معركة طاحنة، راحة لشهرين، ثم مواجهة الجيش الأمريكي في عدة معارك والانتصار عليه؛ تُرى أي تلك الأمور أصعب؟ الانتصار على روسيا أم الانتصار على أمريكا... إحم... دعنا نكمل...

انبثقت آلاف الخطوات من تلك الخطة المكتوبة بكراسة الرسم تحديدًا، وما انفكَّ الفتى ينفذ كل خطوة بدقة عالية، بداية بالتحاقه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، مرورًا بتوفير المال، وتكوين علاقات، وإيجاد الدعم المناسب، دراسة القانون والقانون الدولي، وصولًا لخطوة إنشاء الحزب...

حزب له صبغة خيرية بحتة "في البداية فقط" استطاع فرض وجوده على

المجتمع بكل طريقة ممكنة، دعم الشباب، وسائل التواصل الاجتماعي، محو الأمية، الأعمال التطوعية... الكثير منها، بداية بموائد الرحمن، وصولًا إلى التطوع لتنظيم البطولات الرياضية والمؤتمرات الدولية، لم يهتم الحزب بالمقاعد البرلمانية كثيرًا، فالهدف كان واضحًا من اليوم الأول، انطلت الخدعة على الناس وازدادت ثقتهم في الحزب تدريجيًا؛ ما فعله إبراهيم بعد ذلك، كان نسخة مما فعله هتلر في ألمانيا منذ قرن من الزمان، يمكنك فقط استبدال عبارات مثل "العرق النازي" أو " الجنس الأري المهيمن" ب "العرق الفرعوني" أو "أسبقية الحضارة الفرعونية"...

عالم الفيزياء د/ مصطفى عبد الباسط، نعم أعلم أنك لا تعرف عنه شيئًا، كما لا تعرف شيئًا بالطبع عن العالم " كلاوس فوكس" كان فوكس ضمن العديد من العلماء المشاركين في مشروع مانهاتن السري، تحت قيادة عالم الفيزياء الشهير "أوبنهايمر" وبإشراف أمريكي لإنتاج القنبلة النووية، ونجحوا بالفعل في ذلك، واستخدم الجيش الأمريكي السلاح النووي مرتين في نهاية الحرب العالمية الثانية، لتنفرد أمريكا بعدها بعرش العالم، وتفرض نفسها كقوة عظمى لا تقهر...

وبعد أعوام قليلة فاجأ الاتحاد السوفيتي العالم، حيث تمكن السوفيت من صنع قنبلة نووية، ليتعادلوا في سباق التسليح العسكري مع أمريكا، ويتقاسموا معها عرش العالم، وتبدأ حقبة كيد النسا المعروفة بـ "الحرب الباردة" والتي تعرفها أنت جيدًا؛ واُكتشف أن الاتحاد السوفيتي وصل

لإنتاج القنبلة النووية في وقت قياسي بسبب تسريب لمعلومات عن مشروع مانهاتن، تُرى من قام بذلك التسريب؟ نعم، أحسنت، إنه صديقنا كلاوس فوكس...

للوهلة الأولى ستظن أنه كان جاسوسًا خائنًا، لكن تلك الوشاية لها تعليل يحمل قدرًا من الحكمة لا يمكن تجاهله، وهو إن ظل السلاح النووي حكرًا على دولة واحدة، لن تتردد في استخدامه على كل من يخالف إرادتها؛ والجميع كان يلاحظ أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تتحول ببطء إلى ألمانيا هتلر التي أرهبت العالم، ناهيك عن أن استخدامها للسلاح النووي مرتين في نهاية الحرب كان عنفًا مبالغًا فيه وإفراطًا في استخدام القوة؛ فقام كلاوس فوكس بفعلته ليخلق نوعًا من أنواع التوازن أدى إلى تقييد استخدام السلاح النووي، فكل دولة منهما تعلم أنها لو استخدمته فسترد الأخرى عليها، فيصبح الخوف من عاقبة استخدامه هو المانع الوحيد عنه، وهذا ما حدث بالضبط، ثم ترسخ في أذهان الجميع أن الحرب النووية هي حرب إبادة جماعية لن يخرج أي طرف من أطرافها منتصرًا...

وكان الدكتور مصطفى عبد الباسط يرى أن كلاوس فوكس عالم بدرجة فيلسوف تمكن ببُعد نظره من إنقاذ العالم من الخطر النووي "مؤقتًا على الأقل" ليقرر ابن الذكية هو الآخر أن ينقذ العالم على طريقته...

لكن من مصطفى عبد الباسط؟ هو عالم مصري، من المقربين لإبراهيم مختار، بل كان صديقه المخلص الذي يعلم عنه كل شيء، حيث كان إبراهيم

يعتمد على العلماء لإحراز تقدم في كل المجالات، الزراعة والصناعة والتكنولوجيا وتطوير الأسلحة العسكرية، وتحديدًا مجال تطوير الأسلحة؛ فبعد وصوله إلى الحكم بخمس سنوات، أعلن الحرب على روسيا، وبعد معارك طاحنة استمرت لثلاث سنوات متتالية، تمكن إبراهيم مختار وجيشه من غزو نصف الأراضي الروسية، وإخضاع حكومتها لعقد اتفاقية سلام مذلة مع فرض رقابة صارمة على ترسانتها النووية، وإعلان انضمامها لمظلة الحكم الفرعوني...

وبعدها بأربعة أعوام، أعلن الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، وقام بتدمير كل القواعد الأمريكية العسكرية بالشرق الأوسط، لترد أمريكا بقنبلة نووية تم تفجيرها على بعد ٢٠ ميل بحري من الإسكندرية، أدت إلى موجة تسونامي هائلة أنهت عُرس عروس البحر الأبيض الذي استمر لقرون، بجانب الأثر الإشعاعي بالطبع؛ فأمر إبراهيم بإطلاق السلاح السري، وهو فخر صناعة الدكتور مصطفى عبد الباسط، "قنبلة النبض الكهرومغناطيسي" قنبلة ليس لها أثر تدميري، لكنها تُصدر نبضًا كهرومغناطيسيًا يُفسد أي شيء به تيار كهربي ويحوله إلى "حتة حديدة" والجدير بالذكر أن مدى النبضة الانبعاثي يُمكن تحديده، وبالفعل تم توجيه الضربة إلى العاصمة واشنطن، لتعود كما كانت منذ ثلاثمائة عام، فأتى الرد سريعًا في الليلة نفسها بتوجيه رأس نووي أباد مرسي مطروح عن بكرة أبيها، فما كان من إبراهيم إلا أن أمر بتوجيه قنبلة كهرومغناطيسية يشمل مداها الانبعاثي قارة أمريكا الشمالية كلها...

هنا انعزل الدكتور مصطفى قليلًا ليحلل الموقف، ويصل إلى قرار مستقل؛ يصنع قهوته بالطريقة الكلاسيكية المعهودة، فهو يمقت قهوة الماكينة، ويتأمل الغروب من شرفة مكتبه بمركز الأبحاث، الوضع أصعب من أن يُوصف، فلأن المصائب لا تأتي فرادى، ولأن الجنون معد، فلقد أعلنت الدولة الراعية لليمين المتطرف في العالم "ألمانيا" الحرب على... نعم كما قُلت أنت بالضبط، علي فرنسا، وقُصفت باريس برأس نووي، تحول برج إيفل بعدها إلى آلاف اللترات من صهارة المعدن، والروس أيضًا بعقليتهم الشيوعية أعلنوا التمرد علينا وها هم في طريقهم للسيطرة على ترسانتهم النووية مرة أخرى، وكوريا الشمالية قررت ابتلاع كوريا الجنوبية، وجيش الصين يستعد لغزو الشرق، القرار كان صعبًا للغاية، كأن العالم تحول إلى مصحة نفسية ضخمة وهو الطبيب الوحيد بها؛ ليرتشف قهوته، ويحسم قراره، اتجه فورًا إلى المختبر المركزي لوحدة تطوير الأسلحة وأمر الجميع بالخروج، وإذا به يجر كرسي معدني يتشابه صوت احتكاكه بالأرض مع صوت نشاز عازفي الكمان المبتدئين، ثم يجلس أمام وحدة تحكم مزدحمة بالأزرار يتم التحكم من خلالها في القذيفة الكهرومغناطيسية، والتي من المفترض أن تحلق إلى أمريكا خلال دقائق حسب أوامر إبراهيم، لكنه قام ببعض التعديلات التي من شأنها أن تجعل النبض الكهرومغناطيسي يصيب أمريكا الشمالية دون أن تغادر القذيفة مكانها، بل ويصيب أيضًا أمريكا الجنوبية... وأسيا وأوروبا وإفريقيا وأستراليا... إلخ، فلقد قام بتعديل المدى الانبعاثي للنبضة كي يشمل العالم كله، فما كانت إلا دقيقة واحدة حتى نضبت كل شرايين الطاقة

في العالم، وفسد أي جهاز له طبيعة إلكترونية...

نعم... كان هذا الحل الوحيد، فلقد تم إيقاف الجنون النووي الذي تفشى في العالم رغم أنف الجميع، ولقد تحولت المعدات النووية ومعظم المعدات العسكرية إلى مجموعة لا بأس بها من ألعاب الأطفال، وانشغل الجميع في كيفية الهروب من عصر الظلام المفاجئ الذي حل بالعالم...

ماذا؟ هل نضج الطعام؟ أوه أخيرًا، أنا أتضور جوعًا، ما أروع تلك الصدفة التي جمعتني هنا على مشارف الغابة، بصياد ماهر مثلك بل وطباخ بارع أيضًا؛ لديَّ اعتراف يجب أن أعترف لك به، خصوصًا بعد أن لامست فيك قدرًا من الحكمة والرزانة...

أنا أحد أبطال هذه القصة، بالطبع لست إبراهيم، أنا الدكتور مصطفى عبد الباسط، لا تنظر لي هكذا يا صديقي، لقد أثبتت لك بالشرح المستفيض أنه لم يكن هناك مهرب من ذلك القرار، ولو وُضعت في الاختبار نفسه ألف مرة، لتصرفت بالطريقة نفسها في كل مرة؛ وانظر يا صديقي للجانب المشرق، الآن يمكننا التأمل في سماء نقية وغير مشوهة بالتلوث الضوئي، يمكننا رؤية النجوم والأطياف الملونة للمجرات بشكل أوضح؛ كما قلت لك أنا لا أفشي هويتي لأحد، لكنني لامست فيك قدرًا من النضج والتحضر و... لماذا تُخرج خنجرك من غمده؟!

"الإشعاع السايكوفيزيائي"

مصطفى طيب القلب...

اتَّصل بي صديقي العزيز مصطفى وسألني مقتضبًا: أين أنت؟

فأجبته: في البيت، لا أفضل الخروج الليلة فالجو عاصف وأريد النو...

ليرد مقاطعًا: أنا قادم إليك.

ثم أغلق الخط، لم أهتم كثيرًا بطريقته الفظة، فلقد اعتدت على همجيته وتسرعه، قالوها قديماً "صاحبك على عيبه"

سرعان ما كان مصطفى يقف أمام باب شقتي، يدق الجرس بسرعة ويطرق الباب بعنف كأن هناك أسد إفريقيا يركض خلفه، في هذه اللحظة استشطت غضبًا وقررت أن هذه المرة لن تمر على خير وأنني سأوبخه بشدة على تصرفاته الهمجية؛ فتحت الباب وقد أعلنت اعتراضي بملامح وجهي الممتعضة، فاستقبلني هو بلكمة لم أذق مثلها في حياتي...

ارتميت على ظهري متأثرًا بلكمته العنيفة، اتَّكأت على يدي اليسرى لأرمقه وأنا أشعر بالسائل الأحمر الدافئ يسيل من أنفي، فبكيت.. بكيت بكاءً شديدًا ممزوجًا بأنين الألم، والحمد لله أني فعلت ذلك، فلعله كان يريد أن يضيف بعض الركلات والضربات إلى لكمته تلك، لكن بعدما رآني في هذه الحال كبح جماح انفعاله قليلًا، كان طيب القلب رغم كل شيء...

"مصطفى ضابط شرطة كفء... لكن قضيته الأخيرة ضربت مفكًا في سمعته، فلمدة عام كامل لم يتمكن مصطفى من القبض على ذلك المجرم المشهور إعلاميًا بـ"سفاح النساء" إذ ارتكب ذلك المجرم خمس جرائم قتل لسيدات وفتيات داخل نطاق مدينة السادس من أكتوبر؛ في كل مرة يرتكب جريمته ويهرب دون أن يترك خلفه أي أثر، يختفي بعدها لأسابيع أو شهور ثم يظهر بجريمة جديدة...

لم يقدم الطب الشرعي أي معلومات مفيدة عن السفاح سوى أنه أعسر، وفي كل مرة يقتل ضحيته بطعنة نافذة أسفل البطن ثم يقوم بذبحها، وهذا ما حكاه لي مصطفى حينما كنا جالسين على المقهى، وكان يتساءل ما الذي حمل ذلك المعتوه على قتل الأبرياء، ما الذي يدفعه لفعل ذلك؟

بالصدفة كان تلفاز المقهى يعرض آخر أخبار الحرب في أوكرانيا وأخبار "زيلينسكي" رئيس أوكرانيا الذي يجوب أوروبا كلها بحثًا عن المساعدة، فقلت لمصطفى: أتعلم ما الإشعاع السايكو فيزيائي؟

مصطفى: لا، ماذا يكون؟!

فأجبته وأنا أشير إلى شاشة التلفاز: أمامك الآن أحد أشهر الأمثلة على ظاهرة الإشعاع السايكوفيزيائي، "فولديمير زيلينسكي" رئيس أوكرانيا، فذلك الأرعن لم يكن سوى مهرج... كان ممثلًا كوميديًا متوسط الشهرة ضعيف الموهبة، حالفه الحظ بالمشاركة في مسلسل تلفزيوني جسد فيه شخصية رجل سياسي أصبح رئيسًا للبلاد ويتخذ قرارات صعبة وثورية

لكنها دائمًا تتكلل بالنجاح؛ اشتهر ذلك المسلسل وحقق نجاحًا واسعًا؛ وعندما اقترب موعد الانتخابات، فاجئ زيلينسكي الجميع بترشحه رسميًا لانتخابات الرئاسة في أوكرانيا، والمفاجأة الأكبر كانت عندما حصد معظم أصوات الناخبين وأصبح رئيسًا فعليًا للبلاد، فلقد استطاع من خلال شخصيته التي جسدها في المسلسل أن يؤثر على اختيارات الناس على أرض الواقع، وها هو ذا قد ورط بلاده سياسيًا مع روسيا لتنشب على أثر ذلك حربًا وحده الله يعلم متى ستنتهي...

قال مصطفى في عصبية حاول كبتها: حسنًا، جميل جدًا، ما علاقة هذا بما أقوله؟!

فأجبته: بالمثل، هل تتذكر ذلك الفيلم الذي صدر منذ أكثر من عام، وكانت قصته عن سفاح يجوب شوارع الجيزة لقتل النساء؟

أجاب وهو يشعل لفافة تبغ: نعم...

فأردفت: حقق ذلك الفيلم شهرة واسعة ولقي رواجًا بين الناس، من المحتمل أن يكون السفاح الذي تبحث عنه قد اقتبس جنونه من ذلك الفيلم، كل ما أريد قوله هو أن الجنون معدٍ، والناس قد تصيبهم عدوى الجنون بواسطة ما يشاهدونه أو ما يحدث حولهم.

ليرد مصطفى وهو يلملم حاجياته من على الطاولة: أنا مستقبلي المهني في خطر وأنت لا تملك سوى الفلسفة الفارغة، عن إذنك.

وها نحن ذا بعد عشرة أيام من ذلك الموقف، أتى مصطفى لشنقي ليلكمني هذه اللكمة؛ هل تذكر استفزازي له فأتى ليعبر عن غيظه بهذه الطريقة، أم أن هناك شيء آخر؟

أخرج مصطفى من جيبه ورقة بها وجه مرسوم باستخدام برامج الكمبيوتر، وجه ملامحه هي أقرب ما يكون لملامحي أنا، ثم قال: كنت أنت أيها اللعين؟

نظرت له في بلاهة كأنني لا أفهم حرفًا مما يقول، وحاولت إيقاف نزيف أنفي باستخدام يدي وأنا أصدر أنين الألم كطفل أسرفت أمه في ضربه، فاقترب مني وهو يخرج باكو مناديل وألقاه بجواري على الأرض؛ لماذا يا مصطفى، لماذا تقترب أيها الغبي، ألم تتعلم شيئًا من مهنتك؟ ألم تتعلم كيفية التعامل مع الخنازير أمثالي؟!

بسرعة مباغتة أخرجت مطواة من جيبي بيدي اليسري وسددت له طعنة في مكاني المفضل... أسفل البطن، طعنة قادرة على إخضاع أعتى الرجال، فتكوم جسده أمامي على الأرض وهو يتعذب من الألم، قمت من على الأرض والتقطت الصورة التي كانت بيده، أممم الآن فهمت، إنها تقنية الـ DNA phenotyping ، وهي تقنية حديثة يمكن من خلالها استخدام بقايا الـDNA لتحديد العديد من الصفات الجسدية للشخص كالنوع ولون الشعر والعين والعديد من السمات الوراثية التي تشكل ملامح الشخص، وباستخدام هذه المعلومات تُرسم صورة تقريبية للشخص صاحب الـ DNA...

تلك الماكرة... لا أتذكر اسمها، ربما مروة أو صفاء، لا يهم المهم، أنها حينما جرحتني بأظافرها الأنثوية الطويلة وأنا أمرر السكين الحاد على رقبتها لم تكن تقاومني، بل كانت تحتفظ ببقايا من جلدي لكي يتمكنوا من العثور عليَّ بعد موتها، وها قد فعلها مصطفى...

يزحف مصطفى محاولًا الهرب لكن بلا جدوى، اتَّكأ على الجدار وهو ممدد على الأرض ليرى مطواتي وهي مغروسة في بطنه، ويرى أنهار الدماء التي سالت منه، ففزع لذلك فزعًا شديدًا، ثم نظر لي وقد ارتسم على ملامح وجهه سؤال يمكن قراءته بسهولة: لماذا؟!

لا تسألني يا مصطفى فأنا قد أجبتك من قبل لكنك لم ترضَ بإجابتي، إنه الجنون يا صديقي، لقد أصابتني عدوى الجنون؛ ارتعد جسده بعدها بشدة ثم فاضت روحه على الفور...

الغريب في الأمر أنه حتى بعدما علم أنني القاتل، جاء بمفرده ليقبض عليَّ دون قوة من الشرطة ودون أي مساعدة، ألم أقل لك أنه طيب القلب، ربنا يكثر من أمثاله

"خلل نفسي"

"نعم يا صديقي... إنه أنا، لا تقلق، لن أُفاجئك بأنني خدعت الجميع وفررت هاربًا لأستمتع بوقتي على شواطئ ريو دي جينيرو أو لملاحقة الحسناوات في روما؛ ولا تخف أيضًا، فأنا لم أتحول إلى روح شريرة تقطن بأحد القصور القديمة في الزمالك؛ أنا فقط، أكتب لك هذه الرسالة قبل يوم واحد من انتحاري، وأوصيت أن تصلك الرسالة بعد أسبوع من وفاتي، والآن أنا راقد في قبري تمامًا كما تركتموني، هذا بافتراض أنك حضرت دفنتي بالطبع، أنا أثق فيك يا صاحبي، بالتأكيد أنت حضرتها"

سأفصح لك بمنتهى الوضوح عن سبب انتحاري... لا لأنني أطمع في استعطاف البعض، ولا لرغبتي في التحول إلى قصة من التراث الشعبي عن البطولة والتضحية، بل لأنني فقط سئمت الصمت... فألمي يُسكتني، ويؤلمني السكوت...

أتتذكر يا صديقي تلك المدّة رائعة الرونق التي تلت اختبارات الثانوية العامة، كنا نتصرف وقتها كأننا حصلنا على الصك الرسمي الذي يعلن عن اجتياز الطفولة ومرحلة البلوغ، وبداية مرحلة الشباب، صكٌ مكننا من السهر خارج المنزل لأوقات متأخرة، ومن السفر إلى أماكن بعيدة لأيام متواصلة، ومن الجهر بالسباب البذيء دون أن يجرُؤ أحد على التدخل لتذكيرنا بالالتزام بالآداب العامة...

بالنسبة لي لم تكن تلك المدّة مميزة لتلك الأسباب فقط، بل إنه الحماس يا صديقي، رائحة الأدرينالين كانت تفوح من كل شيء، الحياة الجامعية تدق الأبواب، كل الطرق كانت رحبة، كل الليالي بها نسيم يملأ احتمالات المستقبل بالتفاؤل، صحيح أن معظم التصورات كانت وهمية بطبيعة الحال، لكن لا بأس، صحيح أن خطط ومشاريع المستقبل مُحيت بممحاة الروتين، لكن لا بأس...

كانت نتيجة الثانوية العامة "المجموع" مجرد شفرة رقمية مبهمة بالنسة لي، حتى قام أحد أصدقائي بترجمتها وقال لي إنني غالبًا سألتحق بكلية العلوم، شعُرت بحماس لا يمكنني وصفه، راودتني الأحلام عن نفسي يا صديقي "سأكون فيزيائي من الطراز الذي يُذكر اسمه في قائمة المرشحين لجائزة نوبل كل عام، أو الكيميائي عبقري العقاقير الذي تتهافت شركات الأدوية للتعاقد معه، هذا بالطبع بعد أن أكون الأول على دفعتي لأربع سنوات" لكن يا صديقي، إني لأعلم ماهية الخسارة

لكن... دعك من هذا كله، لا يهم، كل هذا لا يهم، لن يفيدك سيل النوستالجيا هذا في شيء، دعنا ننتقل إلى نقطة محورية يمكنني البدء منها؛ مع بداية الحياة الجامعية تمتلئ أحاديث الشباب بالعديد من علامات الاستفهام التي تُترك مبهمة أو يكون لها إجابات مشوشة، كالحديث عن طرق كسب المال بمختلف أشكالها، أوالارتباط، أو السفر إلى الخارج... إلخ.

ذلك الكم من الاحتمالات والصعوبات التي لا يقوى عليها أحد

جعلني أُشفق عليكم، أضناني حالكم يا صديقي، فاكتشفت في نفسي... لا أدري ماذا اسميها، قدرة خارقة أم لعنة؟ حسنًا هي لعنة ذكرتني بالكثير من القصص البوليسية السخيفة، التي يكون البطل فيها كاتب مغمور تتحقق على أرض الواقع كل الجرائم التي يؤلفها في أعماله وبدقة كبيرة...

لكنني لم أكن أؤلف الجرائم، كنت فقط أتخيل حياة أفضل لكل منكم، لأتفاجأ بعدها أن كل ما أنسجه في مخيلتي يحدث بالفعل، أنا أدرك مدى غرابة ما أقول، لكن هذا ما حدث، ولا أزعم بشكل أو بآخر أنني كنت أتحكم في القدر، معاذ الله، فأنا لم أحاول الاستفادة من تلك القدرة، وأنت تعلم يقينًا أن مجتمعنا هو أفضل مجتمع يمكنك الاستفادة منه بمثل تلك القدرة...

بدأ كل شيء في ليلة ذات نزعة خريفية، تحديدًا في المدّة التي اعتدنا أن نجتمع فيها بمقهى أم كلثوم، حينما أتى صديقنا طارق وقد بدت عليه علامات الوهن تمامًا كمن تملكت منهم أعراض العدوى، حاول بتماسك مصطنع أن يتصرف على طبيعته، لكنه سرعان ما فاض به كيل الكتمان، في اللحظة التي سأله أحدنا فيها "مالك يا بني" وأخذ يحدثنا عن معاناته بسبب العمل خلال فترة الدراسة "وهو مضطر لذلك" وعن لعنة "تفويت المحاضرة الأولى" التي تطارده بسبب صعوبة المواصلات العامة بين قريته والجامعة، وهو لا يقدر على تحمل تكلفة إيجار سرير في سكن للطلبة بالقرب من الجامعة، ولا على تحمل مصاريف إضافية منفصلة عن مصروف البيت...

ولولا طابع الكوميديا السوداء المعروف، والذي يغلب على معظم أحاديث الرجال بالمقاهي، لانهار الفتى باكيًا، لكنه اكتفى بالفضفضة الحزينة التي تجملت بمساحيق الضحكات المتناقضة مع السياق؛ وطوال تلك الليلة، انشغلت بحال ذلك المسكين، أفكر في مأساته، هو يتيم الأب، ويتحمل مسئولية والدته المريضة وأخويه الصغيرين...

ودائمًا ما يكون على قدر كبير من المسئولية، لكنه بحاجة إلى دفعة مالية سريعة، فتخيلت سيناريو حقيبة المال الضائعة التي سيجدها، لكن سرعان ما تخليت عن ذلك السيناريو فالفتى من النوع الذي سيسلم الحقيبة إلى أقرب قسم شرطة، ليكتشف أن مكافأة العشرة بالمئة هي مجرد دعابة وهمية سخيفة لا تحدث كثيرًا، وأن عبارات الشكر التي على شاكلة "ربنا يكتر من أمثالك" أو "ربنا يخليك لشبابك" ستكون هي مكافأته الوحيدة في غالب الظن...

لألجأ لسيناريو آخر، أكثر منطقية، يدور حول جد طارق، وهو رجل يؤثر العزلة عن طيب خاطر ولا يطيق رؤية أحد، حتى وإن كانت ابنته، والتي هي والدة طارق كما تعلم...

فتخيلت أن يكون ذلك الرجل من الطراز الذي يقضي نصف عمره في تجميع ثروة سرية، لا يفعل بها أي شيء سوى أنه يقوم بتوريثها، وهذا ما حدث بالفعل، لتتغير حياة طارق تمامًا بعدها، للأفضل بالطبع...

كنت أظن في البداية، أن الأمر لا يعدو على أن يكون مجرد توقعات مبنية على بعض المعلومات الصحيحة، لكن بعد أن توالت السيناريوهات التي

أراها تتحقق أمام عيناي، أيقنت أنني أمتلك تلك القدرة بالفعل؛ انهمكت بعدها في انتشال الأصدقاء من أزماتهم واحدًا تلو الآخر...

هل تتذكر صديقنا خالد؟ أو... دكتور خالد، ومعاناته المستمرة بسبب المعادلة الأمريكية التي ما انفكَّ يجاهد في سبيل اجتيازها، رغبة منه في الهجرة، ألا تتذكر حينما كان يصدعنا بصعوبة الأمر... بل استحالته، ها أنت الآن تعلم كيف اجتازها ووصل إلى ما هو إليه الآن... وإبراهيم الذي قوبل بالرفض مرات عدة، في مقابلات العمل وفي محاولات التقدم للزواج، كيف تظنه أنشأ عمله الخاص وتزوج من فتاة مغرمة به؛ ومراد... وهشام... وسمير... إلخ.

الآن قل لي، ما الذي ستفكر فيه إذا قلت لك مثلًا: "لا تفكر في سيارة سوداء" بالضبط... ستفكر في سيارة سوداء، كذلك تكون الهواجس التي تفرض نفسها على تفكيرنا، تلك الهواجس هي التي أفسدت كل شيء؛ ففي ليلة لعينة، كنتُ أشاهد فيلمًا لعينًا، ومندمج مع أحداثه، وصولًا إلى اللحظة التي أحزنتني كثيرًا، حينما فقد البطل ابنته في حادث مأساوي، فشردتُ قليلًا، لأجد نفسي – دون أن أدري– أتخيل المشهد نفسه يحدث لصديقنا سمير، أقسم أنني لم أكن أقصد ذلك يا صديقي، قضيت تلك الليلة قلقًا، أنتظر الخبر على مواقع التواصل، وبالفعل في تمام الثامنة صباحًا أعلن سمير على صفحته عن وفاة طفلته مريم في أثناء نومها، والتي كانت ستكمل عامها الثالث بعد شهر واحد؛ لقد التقينا جميعًا في اليوم نفسه في أثناء مراسم الجنازة، الحزن

كان يخيم على الجميع، أما أنا فكان الندم يعتصر قلبي، لم أستطع حتى أن أرفع وجهي بوجه سمير صديقي...

بعدها... كنت أحاول جاهدًا السيطرة على أفكاري كي لا تحدث كوارث مشابهة، وكان ذلك الأمر مرهقًا لدرجة لا يمكنك تصورها، حاولت أن أعثر على أي معلومة مفيدة بخصوص تلك اللعنة، لكن لم أجد أي شيء سوى طريقة للتخلص من بعض القدرات الروحانية التي تشبه تلك القدرة، وهي التحدث عنها، بمعنى أنني لو تحدثت عن تلك القدرة الخارقة أمام الجميع، ستُسلب مني وسأستريح منها...

جربت ذلك الحل وتحدثت عن معاناتي مع بعض الأقارب، فما زادهم هذا إلا أنهم تأكدوا من زعمهم بأنني مجنون، وتجنبوني تمامًا، ليزداد الأمر سوءًا، وانهارت مقاومتي، لا يمكنك تخيل حجم الكوارث والجرائم التي حدثت بسبب خيالي، كوارث أخجل بالبوح بها حتى بعد موتي، لكنك تملك حق معرفة جريمة واحدة منهم، لأنها كانت جريمة في حقك، ولهذا السبب كتبت لك هذه الرسالة...

فبالطريقة اللعينة نفسها، في أثناء مشاهدتي لأحد الأفلام بطيئة الأحداث، قرر المخرج أن يفاجئ البطل بخيانة زوجية وبالجُرم المشهود، وتخيلت السيناريو نفسه يحدث لك أنت يا صديقي، سامحني يا صديقي، لم أتمكن من السيطرة على خيالي، وبعدها، حينما كنت أقابلك صدفة، أو في جلسات المقهى نادرة الحدوث، كنت ألمس شيئًا من الحزن الذي تحاول دفنه بأعماقك،

شيء في ملامحك الحزينة كان يخبرني دائمًا أنني محق، وأن خيانة زوجتك لك حدثت بالفعل، لكنك تستثقل أن تبوح بهذا الحمل الثقيل المضني...

وصل خيالي بعدها إلى أكثر مراحله تطرفًا، فالنتيجة الطبيعية للحالة التي كنت أنت فيها، هي الانتحار، لكنني قاومت، قاومت تلك الفكرة بكل ما أوتيت من قوة، يوم... اثنان... ثلاثة؛ لكن الاستسلام أمام تلك الهواجس حتمي يا صديقي، أنا أعلم ذلك، بل أنا خير من يعلم ذلك، لكنني لن أُفرط بك يا صديقي، حتى وإن كلفني الأمر حياتي...

الآن أنا جالس بمكتب أبي، ولقد وضعت أمامي مسدسه القديم، بعد أن قمت بتلقيمه بعناية، لطالما تمنى هذا المسدس اللعين هذه اللحظة...

إلى "شريف مختار" صديقك المخلص "حمزة"

***

"يا بن المجنونة" قالها الدكتور مصطفى في قرارة نفسه بالطبع، كي لا يفسد هيبة الطبيب النفسي المعهودة، والتي يستمدها من الكلام برزانة وفي تؤدة، ومن ديكور عيادته الكلاسيكي، والبايب العاجي الذي ينفث منه نفثات النيكوتين، وبدلته الكلاسيكية إيطالية الصنع، فهو مثال للطبيب النفسي كما انبغى له أن يكون...

أخذ يرمق جاره شريف الجالس أمامه، بنظرات الصدمة، بعد أن أنهى قراءة الرسالة للمرة الخامسة تقريبًا، ليردف قائلًا: متى وصلتك هذه

الرسالة؟

شريف: بعد مدة لا بأس بها من التحقيقات، عندما تأكدت الشرطة من عدم وجود أي شبهة جنائية.

أخذ يدقق مصطفى في الرسالة، ليغرق في تفاصيلها مرة أخرى، ثم يقول لشريف دون أن يرفع عيناه عنها: حدثني عنه بشكل أوضح...

شريف: حسنًا - كما قلت لك في البداية- كان حمزة زميل دراسة من النوع الذي يحترمه الجميع، لكنه لم يكن صديق مقرب بالطريقة التي يُبديها في رسالته، وأعتقد أنه كان يفضل دائمًا ألا يعلم أحد شيء عن تفاصيل حياته الشخصية، فوجوده بيننا كان أشبه بمرور نسمة ريح رقيقة، خفيفة على قلوب الجميع، لكن لا يأبه أحد بوجودها؛ وبالرغم من كونه دائم الحرص على التواجد في المناسبات الاجتماعية وفي جلسات المقاهي، لكنه لم يكن كثير الكلام، يؤثر الصمت دائمًا، حتى أصبح يؤثر الوحدة والانعزال...

ليريح مصطفى ظهره على الكرسي، ويمسك الرسالة بيد واحدة بعد أن انتهى من فحص كلماتها بعناية عدة مرات ويقول وهو ينظر لشريف في جدية تامة: التحليل النفسي عن طريق رسائل الانتحار، لهو أمر معروف جدًا، لكن لا تنسَ أيضًا أنه تقريبي.

شريف: لا مشكلة، أريد فقط أن أعرف أي شيء عن صحته النفسية.

مصطفى: قبل أن أبدأ، دعني أخبرك بأن صديقك... أقصد "زميل

الدراسة" يتخطى مشاكله وهمومه بالكتمان والرضا، حتي صار الكتمان سمة أصيلة وراسخة من سمات شخصيته، لقد ترك لنا تلميحات عن همومه مخبأة بعناية بين السطور في رسالة يعلم أنها لن تظهر إلا بعد وفاته، أي أنه لآخر لحظة لم يستطع البوح بما داخله بشكل صريح ومباشر بل آثر أن يحافظ على كتمانه، مما يُنذر باضطرابات كبت نفسي عنيفة...

سنبدأ بالنهاية... نهاية الرسالة، فنهاية الرسالة تحتوي على بداية حياته، أعني علاقته بوالده، قل لي ما وظيفة والده؟

شريف: على ما أتذكر، كان أستاذ رياضيات بالمدرسة الإعدادية التي التحقنا بها...

مصطفى: هل كان من النوع الذي تحيط الأساطير بعصاه وضربة يده التي مثل المرزبة؟

شريف: نعم بالفعل...

مصطفى: ما الذي يحمل مُدرس رياضيات بالمرحلة الإعدادية على حيازة مسدس في غرفة مكتبه؟! إن رأيك فيه، وحيازته لسلاح ناري في بيته، يوحيان بأنه شخص صارم وعنيف، ويتحول هذا الإيحاء إلى يقين مؤكد بعد هذا الوصف الذي كتبه حمزة بنفسه "لطالما تمنى هذا المسدس اللعين هذه اللحظة" وهذا يعني أن حمزة عندما كان يخطئ في طفولته، لم يكن والده الفاضل يهدده بغرفة الفئران المظلمة أو بأبو رجل مسلوخة، بل كان يهدده بمسدسه؛ تخيل مثلًا أن تكسر كوبًا زجاجيًا في طفولتك، ثم تجد من يهددك

بالإعدام رميًا بالرصاص، متى توفي والده؟

شريف: منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، بالمناسبة، توفيت والدته منذ أن كان طفلًا صغيرًا، اعتقدت أنها معلومة مهمة...

مصطفى: بالطبع، حسنًا دعنا نُكمل، عنف أبيه وتسلطه عليه، صنع منه إنسان مهزوز، ثقته في نفسه منعدمة، يعاني من " الرهاب الاجتماعي" حدثني عن مستواه الدراسي، هواياته، حياته العاطفية.

شريف: كان طالبًا متفوقًا يدهش معظم الأساتذة بثقافته ووعيه، لكن هذا قبل المرحلة الجامعية، فعلى حد علمي لم يكن والده ليرضى بأي كلية سوى كلية الطب، وبعد التحاق حمزة بكلية العلوم، اعتبره والده فاشلًا وأقسم أنه لن يصرف مليمًا واحدًا على هذه الكلية.

مصطفى: وكيف علمت ذلك؟

شريف: سمعت هذا من أحد أقاربه، وتأكدت بعد أن رأيته مصادفة يعمل بأحد المطاعم؛ أما عن هواياته، لا أعلم، فهو لم تكن له روح المبادرة ليشاركنا في بعض الأنشطة الجماعية.

مصطفى: وبالتأكيد وسط كل هذه الضغوطات لم يكن قادرًا على التفكير في الحياة العاطفية.

شريف: نعم أظن ذلك.

مصطفى: المشكلة أننا نتحدث عن شخص ذكي، ومثقف، ومسالم بشكل

مبالغ فيه، فحمزة كان يدرك بشكل ضمني أن ذلك الحال لا يليق به، أن ذلك "الواقع" لا يناسبه ولا يستحقه؛ وهذا مع احتمالية إصابته بـ"اضطراب الشخصية التمثيلي" وهو اضطراب يصيب المرء برغبة شديدة وملحة في أن يكون مركز الاهتمام ومحط الأنظار طوال الوقت، ومن البديهي أن يُصاب حمزة بمثل هذا الاضطراب بعد كل تلك الأضرار النفسية العميقة التي عانى منها...

فمع هذا المرض، ومع رغبته في تغيير هذا الواقع المرير، استبدل الواقع بواقع بديل من نسج خياله فائق الخصوبة، واقع استبدل فيه مكانته بين أصدقاءه من شخص موجود دائمًا على الهامش إلي صديق مقرب للجميع.

شريف: حسنًا، وماذا عن اعتقاده أنه قادر على التحكم في أقدار الناس؟

مصطفى: تلك هي حافة الجنون، هناك اضطراب أو خلل منبثق من اضطراب "الشخصية التمثيلي" وهو الرغبة في التأثير أو على الأقل أن تبدو مؤثرًا، فمثلًا، بين الحين والآخر يظهر من يزعم أنه نبي الله الجديد أو أنه المهدي المنتظر، وهذا كذب محض كما تعلم، لكن معظمهم يعاني من ذلك الاضطراب، ولو بشكل مؤقت...

لكن حمزة مختلف، فهو لم يتباهَ بتلك القدرة المزعومة، بل لم يعلن عن وجودها أصلًا، بالتالي حمزة بالنسبة لنفسه كان متأكدًا من امتلاكه لتلك القدرة.

شريف: إن كان هذا حافة الجنون، فما هو الجنون نفسه؟!

مصطفى: الجنون يكمن في أن حمزة كان يلوم نفسه طوال الوقت على أي حدث سيئ يحدث لأي صديق أو ربما لأي شخص في العالم وهو يوقن في قرارة نفسه أنه المسئول الأول، وأيضًا في محاولته لكبت أفكاره بهذا الشكل المتطرف الذي ذكره، ثم جاء الانتحار ليتوج كل هذا الكم من المعاناة النفسية.

شريف: حسنًا، في النهاية رأيك هو أنه مريض نفسي؟

مصطفى مقاطعًا : لا.. لا، هذا ليس رأي، أنا أؤكد لك ذلك؛ أنا أعلم ما الذي تريد الوصول إليه يا صديقي، اطمئن حمزة لم يكن في وعيه، كان مريضًا جدًا، وليس على المريض حرج، والله سبحانه وحده يعلم مقدار المعاناة الحقيقية التي عانى منها حمزة.

ليردف شريف في أسى: المسكين كان يغرق وحيدًا.

مصطفى: المشكلة لم تكن في أنه يغرق، بل في اعتقاده أنه لا يملك الحق في طلب النجدة.

شريف وهو يقف استعدادًا للرحيل: على العموم، أنا عاجز عن الشكر، لقد أرهقتك في مثل هذا الوقت المتأخر.

يقف مصطفى مصافحًا شريف: لا عليك، الجيران لبعضها، سلامي للمدام والأولاد.

ليقول شريف بعد تنهيدة اختبأ الحزن بين طياتها: أنا والمدام انفصلنا.

قالها ثم طوى الرسالة ووضعها في جيبه بعد أن أخذها من مصطفى،

واستدار مغادرًا المكتب والعيادة تاركًا مصطفى الذي غرق شاردًا في أفكاره لدقيقة ثم صاح: مهلًا! لماذا انفصلا؟!

"بدون أبطال"

رائحة الدم والبارود تفوح من كل الزوايا، وأصوات الانفجارات كالرعد لا يعلو فوقها صوت؛ أما عن صديقنا فرانسواه، فهو في حفل راقص بردهة فندق "جورج الخامس" بباريس، توجه ليطلب حبيبته جاكلين للرقص، بعد أن تغنى الجرامافون بمقطوعة "الغابة الغامضة" لفريدريك شوبان، وهي مقطوعتها المفضلة؛ وهنا توجد معضلة حري بك أن تعلمها، لو أنك قلت أمام بعض الفرنسيين أن الموسيقار "شوبان" بولندي الأصل، ستجد من يستشيط غيظًا ويلوي لسانه ليلقي عليك اتهامات التخلف والجهل، فهم ينكرون على الرجل بولنديته، زاعمين أنه فرنسي حتى النخاع؛ ما علينا...

ارتدى فرانسواه زيه العسكري بناءً على نصيحة أحد أصدقاءه الذي قال له إن الفتيات تذوب عشقًا بالزي العسكري، وبالرغم من سطحية هذا الرأي، إلا أنه لطالما أثبت فاعليته بسبب الهيبة العسكرية المعهودة؛ أما عن جاكلين، فلقد ارتدت فستان أبيض بسيط معتبرة إياه "فأل خير" نعم حتى في فرنسا يؤمنون بتلك الأشياء، وافقت جاكلين على عرض حبيبها، ليتوجها معًا إلى منتصف الردهة، وتبدأ الرقصة الرومانسية بطيئة الإيقاع، تنظر له جاكلين مبتسمة، وهو قد غرق طواعية ودون أي مقاومة في بحور عينيها الواسعتين...

لتتوقف جاكلين عن الرقص فجأة، وتقول: أ... أ...

لا، هي لا تقول أحبك، بل تقول: أفق... أفق أيها الوغد اللعين.

ثم صفعته صفعة تتناقض مع رقة يدها؛ ليستعيد فرانسواه وعيه بالفعل، ويستعيد أيضًا إحساسه بالمكان، ويدرك أنه قد أُصيب بصدمة القصف، لكنه أدرك ذلك بعد أن مشى مسافة لا بأس بها، هائمًا على وجهه في ساحة المعركة حامية الوطيس ودون أي حماية، فما كانت إلا أربعين طلقة صادرة من رشاش ثقيل لدبابة ألمانية، اخترقت جسده تباعًا، وصنعت منه مصفاة صدأة بالية، مات الجندي الفرنسي في معركة تحرير بلاده من الاحتلال الألماني، فنحن الآن على مشارف نهاية الحرب العالمية الثانية، تحديدًا في أغسطس عام ١٩٤٤...

ماذا أيها القارئ؟ هل كنت تعتقد أن مصيره سيكون مغايرًا لهذا المصير؟! كيف وهو يسير بلا أي تغطية وسط معركة ضروس! أم أنك تريدهم أن يقولوا عني كاتب لا تتسم أعماله بالواقعية؟

هل اعتقدت أن ذلك الحقير سيكون بطل قصة من تأليفي أنا؟ حسنًا... لا تتسرع دعني أقدم لك كابتن "فرانسوا إدموند" تم استدعاءه للمشاركة في هذه الجبهة، بسبب خبرته العسكرية التي اكتسبها في جبهة الجزائر، إذ شارك هذا الحقير في العديد من المجازر الجماعية بحق إخوانك في الجزائر، والشهادة لله، لقد أظهر الرجل كفاءة قتالية غير مسبوقة في سبيل إخماد ثورات المجاهدين الجزائريين، الذين كانوا يقاتلون بالسيوف وصفائح الطهي وعشرات البنادق العتيقة؛ وها هو ذا لم يتمكن من الصمود لأكثر من

ساعة في معركة متكافئة القوى؛ أتعلم أنه لو كان قد نجا من هذه المعركة، كان سيعود لجبهة الجزائر مرة أخرى، وفي غالب الأمر كان سيشارك في مجازر سطيف وقالمه، والتي ستحدث بعد أقل من عام...

احذر... انبطح قليلًا، فأنت بالتأكيد لا تريد أن تواجه المصير نفسه الذي واجهه ذلك الفرنسي، صدقني وقتها لن أتردد في استبدالك بقارئ آخر؛ الآن هيا بنا نذهب لنفتش عن بطل لهذه القصة في مكان آخر...

على بعد عشرة أميال من نقطة اشتباك القوات الألمانية بالقوات الفرنسية وقوات الحلفاء، يوجد معسكر كبير للقوات الألمانية تم بناءه منذ أكثر من أربعة أعوام، وها نحن ذا ندخله من بوابته الرئيسة، لكن يبدو أن أنباء الهزيمة قد وصلت قبلنا...

فالفزع والفوضى قاسم مشترك بين كل من في المكان، إذ يسارع كل جندي لنقل المعدات والمؤن والوقود إلى عربات النقل الضخمة وطائرات الهليكوبتر العملاقة؛ صاح أحد القادة الميدانيين في الجنود، مستخدمًا اللكنة الألمانية العنيفة المعهودة، والتي توحي بأن المتحدث يسبك بأقذع الشتائم أو يهددك بانتزاع أحشاءك من مكانها؛ بالطبع أنا لا أفهم ما يقول، لكنني لست بحاجة إلى تعلم الألمانية كي أفهم أنه يقول شيء ما على شاكلة "أسرعوا أيها الأوغاد" أو "يجب علينا المغادرة قبل قدوم الفرنسيين"

بالطبع يسارعون في الهرب، فلو أمسك بهم الفرنسيون سيعيدون إحياء طقوس الإعدام بالمقصلة، تمامًا كالأيام الخوالي التي عقبت الثورة الفرنسية؛

لكن دعك من هذا كله، وأنظر معي إلى ذلك المبني الصغير، غرفة أسمنتية كبيرة منفصلة عن باقي مباني المعسكر، يقف على بابها قائد المعسكر، يراقب المشهد بملامح جامدة ووجه خلا من أي تعابير، أعتقد أن هذه الغرفة هي مكتبهُ، بالتالي هو مركز إدارة المعسكر، هيا بنا لنلقي نظرة من كثب...

نقف أنا وأنت الآن على سجادة هي أقرب لتحفة فنية، سجادة كلاسيكية سويسرية الصنع، تعادل تكلفتها تكلفة تجهيزك لعش زوجيتك أنت وعشرة من أصدقائك، على الجدران الأيمن عُلقت لوحة محفوظة في إطار مطلي بالذهب، لوحة تسجل لحظة اقتحام جنود الإمبراطورية البروسية لخطوط قوات الإمبراطورية الفرنسية، في الحرب التي انتصرت فيها مملكة بروسيا بسبعينيات القرن التاسع عشر، المسكين وضعها هنا كنوع من أنواع التبرك أو الفأل الخير، وعلى الجدران الأيسر عُلقت خريطة للعالم بحجم الجدران؛ لك أن تتخيل أن كل قطعة أثاث هنا هي تحفة فريدة لا يوجد منها الكثير حول العالم، ولو تمعنت في وصف كل منها لن تكفيني صفحات هذا الكتاب...

أمامنا الآن في واجهة الغرفة يوجد المكتب، وقد عُلقت خلفه صورة متوسطة الحجم للفوهور "أدولف هتلر" ولن أُسهب في وصفها كثيرًا، فهي صورة لفوهور كأي فوهور آخر، المختلف فيها أن هتلر لم يكن يبتسم تلك الابتسامة التي تعرفها أنت جيدًا، ويقابل المكتب في نهاية الغرفة، طاولة اجتماعات وُضعت عليها خريطة تفصيلية لمسرح عمليات هذه الجبهة، وكل معركة خاسرة تم تمثيلها على الخريطة بعلامة "إكس" سوداء...

لم يمر الكثير من الوقت حتى دخل قائد المعسكر مرة أخرى وأغلق الباب من خلفه، وبمجرد أن أغلق الباب صمتت كل الضوضاء القادمة من الخارج، أي أن هذه الغرفة عازلة للصوت، مشى بهدوء وفي تؤدة محافظًا على جمود ملامحه وقد جعل يديه خلف ظهره ممسكًا يسراه بيمناه، يرمق المكان بنظرة متأملة كأنه يودعه، ويكمل سيره في هدوء لآخر الغرفة، بمجرد أن مر بجوار طاولة الاجتماعات رمق الخريطة التي عليها بنظرة متفحصة سريعة، متأملًا كل هذا الكم من علامات الإكس السوداء التي تحاصر موقع المعسكر على الخريطة، ليبتسم ابتسامة لاعب الشطرنج الذي يدرك أنه أيًا كانت الحركة التي سيقوم بها، فإن الشاه سيموت بعد نقلة واحدة...

أكمل سيره تجاه ركن في نهاية الغرفة به جرامافون عتيق في غاية الفخامة، ثم أخرج مغلف الأسطوانات، واصطفى منه أسطوانة بعينها ليثبتها بعناية في مسار إبرة الجرامافون، ثم شرع في تشغيله...

تعالى صدى إيقاع الصدمة الحزينة الذي ببداية المقطوعة في أرجاء المكان، إنها مقطوعة "ساراباندي" إحدى أشهر مقطوعات الموسيقار الألماني جورج هاندل، ولو كان هاندل معنا الآن، كان سيغير اسم مقطوعته تلك إلى "النهاية" أو "السقوط العظيم" فهي حقًا مقطوعة تليق بمثل هذه النهاية الملحمية، نهاية ألمانيا النازية، نهاية الإمبراطورية التي محت بالكفاح آثار الهزيمة المذلة في الحرب العالمية الأولى، وها هي ذي تسقط بالسرعة التي لم تخطر ببال أكثر أبناءها تشاؤمًا...

تراجع القائد في هدوء ليتوجه نحو مكتبه، وإذا به يقف لبرهة أمام خريطة العالم، يتأمل موضع ألمانيا على الخريطة، يرمقها في أسى عميق، ولسان حاله "لقد قمنا بكل شيء كما ينبغي له أن يكون، فلماذا كان الفشل حليفنا؟"

ثم انسحب ليجلس على كرسي المكتب وفتح أحد الأدراج ليفتش عن شيء ما، وإذا به يخرج رصاصة كبيرة، ثم قام بلف رأس الرصاصة حتى انفتحت وأخرج منها حبة السيانيد خاصته؛ إن كل من آمن بألمانيا النازية، سواء كان من القادة أو من الجنود أو حتى من شباب الحزب النازي، يخبئ في جعبته حبة سيانيد كتلك، ليستخدمها في مثل هذه اللحظة، لحظة الهزيمة، فالهزيمة بالنسبة لهم هي النهاية، ولقد آثروا بطيب خاطر أن يتجرعوا السم على أن يعيشوا ليشهدوا نهاية ألمانيا النازية...

هيا بنا لنرحل سريعًا، فأنت لن تتحمل منظر التشنجات العنيفة ولا منظر الرغوة البيضاء التي ستسيل من فمه... ماذا؟ بالطبع لا، لن أتخذ ذلك النرجسي المتغطرس بطلًا لقصة من تأليفي، أم أنك تريدهم أن يقولوا عني أتعاطف مع مجرمي الحرب أو أروج لأفكار دجالي اليمين المتطرف...

هل تعاطفت معه؟! أنا لا أرى أي سبب للتعاطف، فغالبًا ما تكتسب نهاية الطغاة هذا الطابع الميلودرامي الحزين، والعجب كل العجب فينا نحن، نرى الطاغية في عز سطوته وأعتى أيامه طغيانًا وعنجهية، فنصب عليه اللعنات، ونصيبه بدعائنا مثلما أصاب موسى فرعون وملأه بدعائه، وإذا ما رأينا نهايته الشاعرية التي يستحقها، بكينا وتباكينا عليه وقلنا ولا يوم

من أيامك؛ هيا لنبحث في مكان آخر...

ربما ستشعر بالدوار والغثيان قليلًا، وستعاني للحظات من عدم الاتزان وطنين بالأذن وربما ستسيل قطرة دماء أو قطرتين من أنفك، هذا كله بسب الفرق في الضغط الجوي وبعض العوامل الأخرى، فنحن الآن على متن الطائرة "بي ٢٩" المتجهة لقصف مدينة هيروشيما بقنبلة نووية في صباح السادس من أغسطس عام ١٩٤٥...

لا داعي للاستغراق في وصف قمرة القيادة، ففي جميع الأحوال لا أنا ولا أنت سنتمكن من فهم أي شيء هنا، فقط نحن محاطان بملايين الأزرار والعدادات من بين أيدينا ومن فوقنا؛ على يسار قمرة القيادة يجلس المدعو"بول تيبيتس" وهو الطيار الأمريكي المكلف بتنفيذ هذه المهمة، تمعن في ملامح وجهه قليلًا، دعك من تسريحة شعره ذات التمويجة الكلاسيكية، ودعك من ملامح وجهه الحادة الخالية من كل ما يوحي بالندم أو التردد، فالرجل اعتاد أن يجرد مشاعره من أي شكل من أشكال الضمير، مستخدمًا تلك الجملة المقتضبة الشهيرة عسكرية القوام وهي "أنا أنفذ الأوامر" فقط تأمل معي نظرة الخوف في عينيه، نعم... خوف نقي وواضح، فالرجل يعلم أنه يحمل في جعبته بابًا من أبواب الجحيم، اختراع لم تتم تجربته إلا مرة واحدة فقط منذ أقل من شهر، وهذا يزيد من نسبة وقوع أي خطأ فني من شأنه أن يجعل القنبلة تنفجر قبل إلقاءها، بالتالي هو يعلم أنه من الممكن أن يتحول هو وطاقم الطائرة والطائرة نفسها إلى كومة من الرماد الكربوني لن تزيد كتلتها

بأي حال عن ربع كيلو جرام...

وبمجرد أن ألقى القنبلة سقط معها عبء الخوف من على عاتقه، يمكنك الآن رؤية رجل عسكري فخور... تترد بين شفتيه الجملة نفسها من حين لآخر "أنا أنفذ الأوامر" تتجلي بين جنبات نفسه، يرى شمسًا صناعية تسقط فوق رؤوس المدنيين... "أنا أنفذ الأوامر" ظلال الناس تُطبع على الأرض "أنا أنفذ الأوامر" ظل يرددها حتى طغت على مشاعره، واستعبدت روحه...

أمد الله في عمره حتي شهد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وخرج في الإعلام بتصريح مفاده أن يجب على الجيش الأمريكي الرد بقنبلة نووية تُلقى على مكة أو كابول أو القاهرة؛ وعلى فراش الموت في عام ٢٠٠٧ استمر بول في ممارسة تطرفه بأن قال لو عاد به الزمن مرة أخرى لكرر فعلته...

أممم... أعتقد أن جهودنا يا صديقي تكللت بالفشل، لا أخفيك سرًا فالبحث عن بطل بين هؤلاء يشبه إلى حد كبير البحث عن شيء ثمين في مقلب نفايات؛ لا، بالطبع لن أعتذر على إضاعة وقتك الثمين، عن إذنك...

" هلوسة حادة"

بعد غروب الشمس، تراقصت إضاءة الشموع المتلألئة على شاطئ سبياجيا دي كونيجلي الساحر بجزيرة صقلية، شموع زينت صفحة الشاطئ كأنها اقتبست شيئًا من النجوم المتناثرة في السماء؛ وبين الشموع افترش رمضان وزوجته نهى الرمال ببساط رحب من حرير يحاكي نسجه بساط كسري النفيس؛ وفي الأرجاء تعالى صوت الست بصداه الأصيل: "يا حبيبي... الليل وسماه... ونجومه وقمره... قمره وسهره... وأنت وأنا... يا حبيبي أنا... يا حياتي أنا..." تُردد نهى الكوبليه وهي هائمة بعينا رمضان، وتسقيه كأسًا من عصير الأناناس المعطر بماء الورد، ليترقرق الدمع على وجنتيه فرحًا بحب حياته الذي ناله أخيرًا بعد شوق وحرمان طال لسنوات...

ليقطع كل هذا صوت فتح شيش البلكونة الغليظ الذي لا يعجز أحد عن تمييزه، وشعاع شمس الظهر الفج قد سقط على وجه رمضان، ليستيقظ من نومه بوجه عابس يمقت الدنيا ومن عليها، استند على خشبة سريره المتهالك وهو يتثاءب ويتمطى محاولًا دفع أثر النوم عن جسده، وأمه تقف أمامه لتقول في غضب: قم يا موكوس لقد تأخرت عن العمل...

ليرمقها رمضان بنظرة بلهاء دون أن ينبس ببنت شفة، فلا جدوى من أن يذكرها للمرة السابعة أن اليوم هو يوم عطلته، وآثر الصمت حتى يكظم غيظه، فغادرت وهي تضرب كفًا بكف حسرة على ولدها المهمل...

بعد أن استعاد رمضان وعيه بالكامل وأدرك أن الساعة الآن الثانية بعد الظهر، أخرج هاتفه وهو يقول بصوت يكاد لا يُسمع: يا أولاد الـ**** يا حرامية ثم اتَّصل بالخط الساخن لشركة "sweet dreams" ليرد ذلك الصوت الذي يوحي دائمًا بأنك تستمع إلى رجل آلي...

"مرحبًا بك في Sweet dreams...welcome to sweet dreams... للغة العربية اضغط الرقم واحد، وللغة الإنجليزية اضغط الرقم اثنان..."

أخذ رمضان يضغط الأرقام بسرعة ليوقف نزيف الرصيد هذا، وليتخطى كما لا بأس به من الثرثرة عديمة الفائدة، حتي جاءه رد من أحد ممثلي خدمة الدعم الفني

– مساء الخير، معك ريهام من شركة sweet dreams أتشرف باسم حضرتك...

خفف رمضان من حدة انفعاله قليلًا بعدما سمع هذا الصوت الرقيق، ثم قال: مساء النور معكِ رمضان محمد.

– تفضل يا أستاذ رمضان، كيف يمكنني مساعدتك؟

– أنا أشكو منذ أسبوع من المشكلة نفسها بلا جدوى، الحلم قصير للغاية، قد يستغرق أقل من دقيقتين في بعض الأحيان مهما طالت مدّة النوم...

– نعم، هذه المشكلة تتكرر عادة بسبب ضعف تركيز الجرعة المتعاطاه.

– تنهد رمضان بعمق، ثم قال: قالوا لي ذلك من قبل... لكنني لا أريد

زيادة تركيز الجرعة.

– لماذا؟ هل جرعتك قوية التركيز؟

– لا، عشرة مليجرام.

– حسنًا، لكنها جرعة ضعيفة للغاية، ربما كانت تفي بالغرض في البداية، لكن جسدك قد اعتادها بمرور الوقت.

– مفهوم، ألا يوجد حل آخر سوى زيادة تركيز الجرعة؟

– لا يا فندم، ليس على حد علمي.

– حسنًا، شكرًا لكِ.

– العفو يا ف...

أغلق رمضان الخط ممتعضًا وتأفف في سخط على هذا الحال، قام من علي سريره وإذا بصوت إشعار يصدر من الهاتف ينبأه برسالة من صديقه سرحان يقول فيها: "لقد استيقظت لتوي من النوم، قابلني في المقهى بعد ساعة" فرد رمضان عليه موافقًا، ثم توجه إلى المطبخ ليعد لنفسه قدحًا من القهوة، ويشعل بعدها لفافة تبغ في الشرفة، فرائحة البن المغشوش والتبغ الرديء تمثلان البداية الروتينية ليوم أي شاب شبه عاطل كرمضان...

وفي شرفته وقف يحملق في شاشة الهاتف، يتصفح جروبات التوظيف كعادته، فمنذ شهور وهو يبحث عن وظيفة في شركة بدلًا من العمل كمندوب بأجر غير ثابت، ولقد أجرى في الآونة الأخيرة كم لا بأس به من

مقابلات العمل التي دائمًا ما تنتهي بـ "هنبقى نكلمك" وهم لا يتكلمون بعدها قط...

وجد في شروط التوظيف قدرًا من التعنت أصابه بالضجر، فأغلق هاتفه وشاح بنظره إلى الشارع المزدحم بالناس والأصوات، ليراها من بين الجميع... تدخل الشارع وتصعد إلى بيتها، إنها نهى جارته التي يهيم بها حبًا؛ نهى فتاة في الفرقة الثانية بكلية التجارة، وهو شاب في عامه الخامس بعد العشرين، فارق السن بينهما مناسب للغاية، لكنه أيضًا الشيء الوحيد المناسب في هذه العلاقة، فظروف رمضان المادية لا تؤهله كي يكون عريسًا مناسبًا في نظر والدها أو في نظر أي أحد، رغم ذلك لم يتوقف رمضان عن محاولة تحسين حالته المادية كي يصبح جديرًا بها، فهو في حبها أسير يرفض التحرر، وهي تعلم ذلك، لكنها لا تقوى على فعل شيء سوى أن تنتظره كي يأتي رفقة والدته ومعهما دستة جاتوه ليطلب يدها من أبيها...

شعر رمضان بالأعراض نفسها التي تفاجئه من حين لآخر، فمؤخرًا تنتابه حالة غريبة، مزيج غير مفهوم من التشتت والشعور بالاستياء والحسرة، فالفتاة التي تزوجها وظفر بها عشرات المرات في أحلامه، هي الفتاة نفسها التي تسير على بعد أمتار منه ولا يقدر حتى على أن يلوح لها بيده؛ كذلك هو الآن يسكن في شقة إيجار قديم مع والدته لا تقارن بالقصر الذي يقطنون فيه هو ونهى ووالدته في أحلامه...

يقولون إن هذه الحالة هي عرض جانبي متوسط الخطورة للعقار الذي

تنتجه شركة sweet dreams، إذ بدأ رمضان في تناوله منذ شهر بناءً على نصيحة صديقه سرحان الذي قال له إن العقّار له تأثير سحري للتخفيف من وطأة الحياة؛ وعلى عكس ما يبدو، فإن العقّار ليس نوعًا من أنواع المخدرات، بل إن وجوده في الأسواق المحلية والعالمية قانوني ومصرح به من قبل منظمة الصحة العالمية؛ ببساطة يعمل العقّار على تنشيط جزء من القشرة المخية في أثناء النوم، هو الجزء المسئول عن التخطيط واتخاذ القرارات، يؤدي ذلك إلى القدرة على التحكم في تفاصيل الحلم وصياغته بالشكل الذي يريده صاحبه...

لاقى العقّار رواجًا بين الناس، وتزايدت تدريجيًا أعداد مستهلكيه حول العالم، فالواقع أصبح أشد وطأة وأكثر ترهلًا من أن يحاول الناس الهرب منه بالطرق التقليدية، كمشاهدة الأفلام والمسلسلات وقراءة الروايات ومعاقرة الخمر إلخ...

العقّار فتح أمام الناس بابًا من أبواب الخيال، عالم بديل يهرعون إليه كلما حاصرتهم أعباء الواقع؛ كان رمضان يسير في الشوارع قاصدًا المقهى وهو يفكر فيما ترتب على كل هذا، فكثير من الناس لم يعد الواقع كافيًا بالنسبة لهم بعد تجربة العقّار، وتمسكوا بذلك العالم الذي يخضع لتلبية رغباتهم، كصديقه سرحان، فذلك المعتوه ما انفكَّ يضاعف تركيز الجرعة التي يتعاطاها، حتى أنه قد يظل مستغرقًا في سبات عميق لعدة أيام يظل فيها أسيرًا لذلك العالم بمحض إرادته...

وصل رمضان إلى المقهى الذي كان يعج بمن فيه، دخله وهو يلتفت يمينًا ويسارًا حتى وقعت عيناه على سرحان، كان سرحان يجلس على طاولة بالقرب من تلفاز المقهى، أمامه على الطاولة حقيبة صغيرة عليها شعار شركة sweet dereams، ويرمق شاشة التلفاز التي تعرض أخبار الحرب الأهلية في أفريقيا وعلى وجهه ابتسامة رضا بلهاء تنم عن حالة سطل فريدة من نوعها، اقترب منه رمضان وألقى عليه السلام فانتبه له وقام مُرحبًا به...

– رمضان: طالت الغيبوبة هذه المرة، أليس كذلك؟

– سرحان مبتسمًا: أربعة أيام، أربعة أيام يا صاحبي جُبت فيها ضواحي روما وزُرت مقاهي فيينا، دخلت غرناطة دخول الفاتحين، نازعت قياصرة روسيا وأباطرة الروم على ملك العالم، ورضخت لي أكثر نساء الدنيا جمالًا...

– رمضان مقاطعًا: وها أنت ذا تعود إلى شبرا مرة أخرى...

– تبدلت ابتسامة سرحان ليرمقه بنظرة امتعاض، ثم أردف: ستظل سطحي ومحدود الخيال كما عهدتك دومًا.

– رمضان: منذ ساعات كنت أقضي أمسية شاعرية على سواحل صقلية، لذلك أجد زعمك بمحدودية خيالي أمر غير دقيق، لكن يمكنك قول إنني أرى الواقع كجدران غليظ يصطدم به كل من تعمد تجاهله، لا مفر من حتمية الواقع يا سرحان...

– سرحان: المشكلة أن كلانا ينظر لذلك العالم نظرة تختلف عن الآخر، أنا

وجدت في ذلك العالم ملاذًا وملجأ من سطوة الواقع الذي أرهقتني محاولة مجاراته، بينما أنت تنظر لذلك العالم كحافز... مجرد دافع يدب فيك الأمل لما قد يكون عليه واقعك في يوم من الأيام، وطالما لم يفنِ أملك بعد فلن تتمكن من التفريط في الواقع كما فعلت أنا...

– رمضان محاولًا تغيير الموضوع: ما هذه الحقيبة؟

– سرحان: هذا سبب طلبي لمقابلتك...

فتح سرحان الحقيبة في هدوء يوحي بحرصه الشديد على محتوياتها، وبداخل الحقيبة عدة أمبولات زجاجية صغيرة، رآها رمضان فأغلق سرحان الحقيبة بعدها.

– سرحان: هذا أقوى تركيز لجرعة واحدة وصلت إليه شركةsweet dreams ، حقنة واحدة تمكنك من الإبحار في ذلك العالم لأسبوع أو عشرة أيام، فقط عليك أن تستهلك كمية كبيرة من الجلوكوز قبل الجرعة، كي تحصل خلايا مخك على غذاء يكفيها طوال هذه الرحلة...

– رمضان: ماذا؟!

– سرحان: أمر باهر، أليس كذلك؟

– رمضان: أنا لا أتحدث عن جرعتك السخيفة تلك... أنا أتحدث عن المدّة، هل تنوي فعلًا أن تحتجز نفسك داخل ذلك العالم كل هذه المدة؟!

– سرحان: نعم، والأمر غير قابل للنقاش يا صاحبي.

– نظر له رمضان في يأس لعلمه أنه لا فائدة تُرجى من محاولة تغيير رأيه، ثم قال: ومتى ستحقن نفسك بها؟

– سرحان: غدًا إن شاء الله، كنت أريد منك خدمة.

– رمضان: بالطبع تفضل.

– سرحان: أنت تعلم أنني أقطن في البيت بمفردي منذ أن سافر أخي، وكنت أرغب في ترك نسخة من مفتاح البيت معك لكي تمر عليَّ كل يوم أو اثنين وتتأكد أن كل شيء على ما يرام.

– رمضان: حسنًا بالتأكيد، لكن ما الذي تقصده بـ"كل شيء"

– سرحان: أقصد أشياء مثل اعتدالي في نومي، وأنه لا يوجد شيء يعيق مجرى تنفسي ولم يصبني أي مكروه.

– ارتسم على وجه رمضان شبح ابتسامة تتلاءم مع هزلية الموقف، ثم قال: سرحان، أنت بالأحرى تطلب مني أن أتأكد أنك ستظل على قيد الحياة.

– تنهد سرحان في أسى عميق وأردف: نعم، لا تقلق لن يحدث شيء إن شاء الله.

استأذن رمضان مغادرًا بعد أن أخذ المفتاح من سرحان ووعده بأنه سينفذ طلبه؛ وفي طريق العودة إلى البيت، باتت بوادر القلق والخوف ظاهرة على وجه رمضان، فسرحان قد وصف لتوه السبب الذي جعل رمضان يعاقر تلك الجرعات كأنه يتحدث عن مرحلة مر بها من قبل حتى وصل إلى الحالة

التي هو عليها الآن، رمضان بالفعل يستخدم تلك الجرعة الضعيفة التي يتعاطاها كحافز يمكنه من أن يأمل في تغيير واقعه للأفضل، جرعة مكثفة من السعادة تجعله قادرًا على خوض غمار يوم جديد في مثل هذه الظروف الموحشة، لكن هل من الممكن أن تكون الحالة التي وصل إليها سرحان هي النهاية الحتمية لهذا الطريق؟

***

لليأس فداحة لا يدركها إلا كل من علم ماهية الخسارة، شعور يرهق روحك ويستنزف أملك ليحملك على سلك دروب كنت تتعجب من سذاجة سالكيها، لتتفاجأ بالواقع يقف أمامك بقوامه الغليظ يقول لك بملامح يكسوها الجمود: لا مفر، اقبلني

فخلال أسبوع واحد ضربت ماجريات الدنيا رمضان بما لم يكن في حسبانه، توفيت والدته اثر أزمة قلبية حادة بينما كان هو يعمه في عالم الأحلام، وبعد وفاتها بيوم واحد، وحينما كان يعاني وحيدًا من مرارة الفقد، سمع الزغاريد تصدر من بيت نهى، إذ تقدم لخطبتها أحد جيرانهم الذي كانت ظروفه المادية أوفر حظًا من ظروف رمضان؛ لذلك... وبينما كان رمضان في بيت سرحان ليطمئن عليه كما وعده، كان يرمق سرحان وهو يغط في نوم عميق، ثم سقطت عيناه على حقيبة الأمبولات المفتوحة المتواجدة على طاولة بجوار سرير سرحان، ولم يستطع بعدها أن يدفع تلك الفكرة عن خاطره، وبدون مقدمات اندفع نحو الحقيبة لينتزع منها أمبولًا ومحقنًا كان

موجودًا على الطاولة نفسها، وسرعان ما سحب الجرعة من الأمبول بالمحقن وأفرغها في وريده...

" هنا كانت العاصمة "

زحام من الناس والأصوات...

كل يسرع إلى وجهته، إلا أنا... أين أنا؟

أنا بأحد تلك الكباري التي يطلق عليها كباري المشاة، والتي تعلو بعض الطرق السريعة؛ صممت هذه الكباري احترامًا لغريزة البقاء لدى الناس، فالناس تلجأ إليه لعبور الطريق هروبًا من هذه الوحوش المعدنية مستعرة السرعة الموجودة بالأسفل...

يمكننا اعتبار هذا الكوبري معجزة هندسية، لا بسبب شكله أو تصميمه، فهو لا يعدو على أن يكون كتلة أسمنتية متصدعة تتراكم عليها طبقات التراب، لكن المعجزة تكمن في كيفية استيعابه لكل هؤلاء الناس، هم لا يمرون فقط، بل يمكنهم أيضًا إلقاء نظرة على بعض السلع المعروضة في طريقهم...

فقد اصطفَّ الباعة على طول الكوبري، ليتحول هذا المكان إلى مركز تجاري شعبي الطراز، هذا يقف أمام فرشة ملابس ممسكًا بقميص هو أقرب لخرقة قماش، ويلوح به مناديًا بالعبارة الشهيرة "لم علينا عبيدك يا رب" وهذا يجلس أمام فرشة هواتف محمولة، يدخن لفافة تبغ، أثر أن يريح حنجرته وقام بتثبيت سماعة ضخمة على فرشته تقص العروض الوهمية على المارة، يمكنك

أن تجد عنده كل ما يخص الهواتف المحمولة، جراب، شاحن، سماعة، كل شيء إلا الهواتف المحمولة نفسها، وعلق على أعلى نقطة بالفرشة، لافتة كتب عليها "موجود حجز عدة تاتش بسعر كويس"

وهذه أيضًا فرشة من البهارات والأعشاب الطبية النادرة التي يمكنك أن تعالج بها نفسك من أي مرض مهما كانت ماهيته، بدلًا من كيماويات الأجزخانة التي ستفقدك إما رجولتك أو كليتيك أو الاثنين معًا "هذا حسب زعم بائع الفرشة بالطبع"

أما أخينا هذا الذي أجلس أنا بالقرب من ڤاترينته، فهو يقف أمام طاسة مستديرة ضخمة يشوبها الشك من بين يديها ومن خلفها، أنواع من اللحوم مجهولة المصدر متكدسة على شكل مجموعات بجوانب الطاسة، خليط من الدهن ومشتقات اللحوم يقدمها الرجل على أنها كفتة، وخليط آخر من اللحوم المصنعة شُكلت على هيئة أصابع سجق وأقراص برجر، ومعجون دجاج على هيئة قطع مغلفة بطبقة ذهبية اللون من الذرة المطحون يسمونها "بانيه" كل شيء على هذه الطاسة غير حقيقي، لحوم مصنعة ومشتقات لحم ودجاج على هيئة معجون، لا يوجد شيء حقيقي هنا سوى الكبدة، نعم، فأنت لم تشترط على هذا الرجل قبل الشراء منه، ماهية الحيوان الذي تريد أكل كبده، ظنًا منك ببديهية الأمر، لكنك لا تعلم أنه يحترم تلك الحقيقة البيولوجية التي تقر بأن كل حيوان مهما كان نوعه يمتلك كبدًا، حتى الفئران يا صديقي تمتلك أكبادًا...

كيف عرفت كل هذا؟ لأن أول شيء فعلته حينما أتيت هنا للمرة الأولى، هو أنني تناولت شطيرتين من طيبات طاسته...

أُريدك أن تعذر انبهاري وتأملي في كل هذا الكم من التفاصيل، فأنا خير مثال على القروي الساذج الذي أتى من قريته في غياهب حقول الدلتا إلى القاهرة، طلبًا للعلم أو العمل أو كلاهما معًا، وأبهرته أضواء المدينة...

نعم تلك الشخصية التي تم تقديمها في السينما آلاف المرات، وكنا في قريتنا دائمًا ما نسخر من المخرج أو المؤلف بسبب سطحية تقديمه لشخصية " القروي" الذي يتورط في المتاعب دائمًا بسبب سذاجته، فها أنا ذا تمت سرقتي بأسهل طريقة يمكن للص أن يمارس بها مهنته، وفي أول أيام تواجدي بالقاهرة فقط...

لقد حذرني كل من يهمه أمري في قريتنا من اتباع الشهوات وإنفاق مالي على بنات البندر، ودعت لي أمي الله أن يجعل بيني وبين شارع الهرم ألف حائل وحائل؛ كي لا يقهرني فضول نفسي وأحاول استكشاف بعض الكباريهات، وحذرتني كثيرًا من أن توقعني إحدى فتيات القاهرة في حبها؛ أنا لست وسيمًا لهذا الحد بالطبع لكن يمكنك اعتباره إعمالًا بمبدأ "القرد في عين أمه غزال"

أتيت من قرية صغيرة على مشارف مركز السنطة التابع لمحافظة الغربية؛ بعد أن ظهرت نتيجة مكتب التنسيق، ورُشحت لكلية الآداب بجامعة القاهرة، تلقيت هذا الخبر بسعادة وشغف للطريق الجديد الذي تهيأ أمامي

من العدم، على عكس والدي الذي لم ينجح ذلك الخبر في أن يقطع صوت كركرة الجوزا خاصته، فذلك الصوت لا ينقطع إلا عند نهاية نفس وبداية آخر، أو عند وجوب القيام بمهمة يتوقف عليها مستقبلنا كعائلة، أما والدتي، فكالعادة أيدتني بجنود الدعاء الصادق الذي تلمس أثره بنفسك سريعًا...

وصلت إلى القاهرة منذ يومين لتقديم الأوراق المطلوبة بالجامعة، وتسجيل أكبر قدر ممكن من أرقام السماسرة لحجز سكن للدراسة، وأيضًا لشراء بعض المراجع؛ وإن كنت تعتقد أن شراء المراجع قبل بداية الدراسة هو شكل من أشكال الحماس المبالغ فيه، فماذا ستقول إن علمت أنني حددت موضوع رسالة الماجستير بالليلة نفسها التي استلمت فيها بطاقة الترشيح للكلية، وستكون عن مدى التغير الاجتماعي والثقافي الذي يطرأ على أي مجتمع كلما ابتعدنا عن عاصمة الدولة التي ينتمي إليها ذلك المجتمع، كالفارق الاجتماعي الذي يمكنك ملاحظته بسهولة بين القاهرة وأسوان، أو بين واشنطن وشيكاغو إلخ...

بالطبع أعلم أنه من الممكن ألا أحقق أي شيء بهذا الصدد، لكن على الأقل يمكنك قول إن هذا الحماس هو ثمرة دراسة شيء أحبه، فأنا مهووس بعلم الاجتماع، وقسم علم الاجتماع هو أحد أقسام كلية الآداب جامعة القاهرة، وهو القسم الذي أنوي التخصص فيه إن شاء الله...

قمت بالبحث عن المراجع التي وددت شرائها، من خلال الإنترنت في سايبر بالقرب من قريتنا، تواصلت إلكترونيًا مع بعض أصحاب المكتبات

العريقة بوسط البلد وميدان رمسيس، لأنتقي عرضًا بسعر مناسب من أحدهم؛ كنت أود شراء "تاريخ ابن خلدون" وهو مؤلف ضخم من ثمانية أجزاء ويشمل المقدمة "مقدمة ابن خلدون" وأيضًا كتاب "التحول الهيكلي في المجال العام" لمؤلفه يورجان هابرماس، وكتاب "الاقتصاد والمجتمع" لمؤلفه ماكس فيبر، وبعض الكتب الأخرى، أقل سعر توصلت إليه هو ألف وثمانمائة جنيه للمجموعة كلها، وقلت لصاحب المكتبة إنني سأجيبه في اليوم التالي بالقبول أو الرفض، بعد أن أخبر والدي أولًا بهذا السعر...

والدي رجل متعقل في صرامته، فبالرغم من أن المبلغ الذي سأطلبه منه لشراء تلك المراجع، هو مبلغ يغطي نفقاتنا كأسرة مكونة من خمسة أفراد لمدة شهر كامل، لكنه وافق دون أن يبدي أي اعتراض أو استياء، حتى بالرغم من علمه بأنها مراجع لزيادة المعرفة فقط، وأنني سأطالبه بمبلغ آخر بعد عدة أيام لسداد مصروفات الكتب الدراسية، فهو لم يكن يدخر أي مجهود أو مال في سبيل القيام بأي واجب يخص أسرتنا، لكن لا بأس مع موافقته تلك، أن يذكرني بجلب فاتورة أو إيصال من المكتبة، لا، لأنه لا يثق بي، بل ليخبرني بشكل ضمني أنني ما زلت تحت رقابته...

استعددت للسفر وحزمت أمتعتي التي كانت عبارة عن حقيبة سفر فارغة متوسطة الحجم، أحضرتها معي فقط لوضع الكتب بها، وحقيبة أخرى صغيرة بها "غيارين" وشرعت أمي في ممارسة الطقس السرمدي المقدس لأي أم مصرية سيسافر ابنها، إذ قالت لي إنها ستقوم بتحضير حقيبة

من المعلبات والمخبوزات وبعض الطعام الذي يمكنه الصمود لخمسة أيام دون أن يتم حفظه في ثلاجة، وكالعادة لم تصغِ لي حينما قلت لها ألا ترهق نفسها، لكنها اقتنعت عندما قلت لها إن توفر دعمها اللوچستي هذا لسفري القادم في بداية العام الدراسي، لأنني سأتغيب عن البيت لمدة شهر كامل أو ثلاثة أسابيع على الأقل...

أعطاني والدي ظرف به المبلغ المطلوب لشراء الكتب، والمال اللازم للمواصلات ذهابًا و إيابًا، وثلاثمائة جنيه ملفوفة داخل ورقة بيضاء كتب عليها اسم وعنوان البانسيون الذي سأقطن به طوال الخمسة أيام وسأدفع ثلاثمائة جنيه بالمقابل، هذا ما قاله عم حسين صديق والدي الذي كان يعمل في البانسيون نفسه كموظف استقبال؛ وأعطاني والدي أيضًا مئتا جنيه تحت تصرفي؛ نسيت إخبارك أنني الآن أعيش في سبتمبر من عام ٢٠١١، وهذا سيوفر عليك الكثير من الحسابات الذهنية، فالمئة جنيه التي أعرفها، لا تقارن بتلك التي تعرفها أنت...

انطلقت من قريتي فجرًا، ووصلت إلى القاهرة باكرًا، ومنذ خطت قدماي خارج محطة مصر، ارتسمت بخاطري خريطة ذهنية بكل المهام التي يجب أن أنجزها اليوم، كأنني في سباق مع عداد رقمي ظهر فوق رأسي فور وصولي، وإن لم أنتهِ من مهامي قبل نهايته سينتهي العالم وستفنى الحياة، لذلك لم أضيع ثانية واحدة، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ الذهاب إلى البانسيون... تم حجز غرفة... تم الاطمئنان على نظافة الغرفة... تم؛ غرفة لا تختلف كثيرًا عن

شكل غرف بانسيونات القاهرة التي اشتهرت في ثمانينيات القرن المنصرم بسبب أفلام محمد خان ونور الشريف...

وضعت أمتعتي بالغرفة واستعددت للنزول سريعًا، لكن قبل أن أغادر الغرفة خطرت ببالي فكرة كنت قد رأيتها في أحد الأفلام من قبل وبدت ضرورية، فلقد قمت بتغليف الألف وثمانمائة جنيه الخاصة بالكتب في غلاف من أكياس البلاستيك ودسستها بعناية داخل صندوق السيفون بالحمام، فوحده الله يعلم من يمكنه دخول الغرفة في غيابي ليعبث بمحتوياتها تأكدت أنني أغلقت باب الغرفة جيدًا بالمفتاح ونزلت بعدها مسرعًا وبحوزتي الدوسيه الذي يحتوي على كل أوراق التقديم المطلوبة...

كنت أظن أنني سأعاني الأمرين بسبب المواصلات العامة، لكن لأن هذه المدّة من كل عام معروفة بأنها مدّة التقديم في الجامعات، وبسبب كثرة الوافدين على جامعة القاهرة في هذه المدّة، وجدت حافلات وعربات ميكروباص في الميادين والمناطق المشهورة بالقاهرة، لنقل الركاب إلى الجامعة مباشرة مقابل أجرة يتم تحديدها عادة بشكل عرفي، ركبت إحدى عربات الميكروباص وانطلقت العربة إلى وجهتها، بصراحة لا يمكنني التغزل في معالم القاهرة ككل من خاض مثل هذه التجربة، لأنني استغرقت في نوم عميق خلال طريق الذهاب إلى الجامعة، ولم أستيقظ من نومي إلا على صوت سائق الميكروباص وهو يقول لي: "يلا يابا قوم وصلنا"

ترجلت من العربة لأجد نفسي أقف أمام بوابة الجامعة، أرمق الطلاب

الوافدين من كل حدب وصوب، وأتأمل الطريق الرحب المؤدي إلى الحرم الجامعي، حماس يجعلني أتوق إلى أن أنال نصيبي من المغامرات الجامعية التي نراها في الأفلام ونسمع عنها في حكايات من هم أكبر منا سنًا...

قضيت في الجامعة ثلاث ساعات... ثلاث ساعات مليئة بالإجراءات الحكومية والأوراق والطوابير والمحادثات الجانبية التي بحثت خلالها عن أصدقاء جدد لكن لم يحالفني الحظ، أنجزت مهمة التقديم وانطلقت مسرعًا كي أبحث عن عربة أو حافلة تعيدني من حيث جئت، انتظرت بضع دقائق حتى رأيت أحد التباعيين يقف على باب حافلة متحركة وهو ينادي على اسم الشارع الذي يوجد فيه البانسيون، أشرت له الإشارة المعهودة كي يقف، فأشار لي هو إشارة فحواها أن أركض أيها الأحمق إن أردت الركوب، فركضت نحوه مسرعًا ولولا ذلك المطب الذي اعترض طريق الحافلة لاستمررت في الركض خلفها إلى أن تصل إلى وجهتها...

في طريق العودة كنت منشغلًا بصب اللعنات على زحام المدينة الخانق، فلقد كانت ساعة خروج موظفين كما يسمونها هنا، بينما كان الجميع منشغلين في نقاش جماعي أثاره التباع حينما قرر من تلقاء نفسه زيادة الأجرة عما كانت عليه في الصباح ثلاثة جنيهات عن كل فرد، وعندما وجد نفسه محاصرًا بين كل هذا الكم من الاعتراضات والجدال والنصائح بأن يتقي الله في خلقه، هتف قائلًا: يووه خلاص يا سيادنا حقكوا عليَّ الأجرة زي ما هي...

ترجلت من الحافلة على أول شارع البانسيون وكنت أتضور جوعًا،

فابتعت في طريقي علبة كشري للغداء، صحيح أنني لم أكن قد أنهيت مهمة شراء الكتب بعد، لكنني آثرت أن أتناول الغداء وأستريح لساعة أو ربما أكثر...

أخرجت المال من صندوق السيفون وأحضرت معي الحقيبة الفارغة ثم ذهبت بعدها للمكتبة في وسط البلد، كنت أعلم ماهية المسافة التي سأقطعها لأصل إلى هناك فالبناسيون في أول الدنيا والمكتبة في آخرها، لكن رغم ذلك أقسمت أنني لن أهدر مالي على سيارة أجرة مهما كلفني الأمر، ولقد ركبت أربع مواصلات عامة مختلفة في سبيل الوفاء بذلك القسم، ومررت خلال طريقي على موقف صغير لعربات الميكروباص موجود بالقرب من كوبري المشاة سالف الذكر...

وصلت إلى المكتبة بشق الأنفس، وبالفعل قابلت مدير المكتبة الذي تواصلت معه من قبل، إذ قام بتجهيز الكتب وأعطاها لي لأتفحصها أولًا، ثم دفعت له المبلغ المتفق عليه دون أي محاولة مملة للفصال؛ كنت على عجلة من أمري فوضعت الكتب في الحقيبة بسرعة، ووضعت معها محفظتي وهاتفي، ثم انطلقت كي أتمكن من العودة بالمواصلات العامة مثلما أتيت...

مررت على الموقف نفسه وفي أثناء عبوري من كوبري المشاة جذبتني رائحة شهية جدًا كانت تنبعث من طاسة بائع الكبدة، ويبدو أن علبة الكشري لم تفي بالغرض، فلقد قرقرت بطني جوعًا، ابتعت منه شطيرتين ووقفت بجوار فاترينته لأتناولهما سريعًا، فتمكنت من رؤية طريقة طهيه،

وتعجبت لكل هذا الكم من البهارات ترابية القوام التي يضعها، فالموضوع تخطى محاولته لجذب الزبائن عن طريق رائحة البهارات بل هو ربما يحاول إخفاء طعم شيء ما، وهذا يفسر لي لما طعم البهار في الشطيرة يطغي على طعم أي شيء آخر، يطغي حتى على طعم الخبز نفسه...

في أثناء انهماكِ في التفكير في ماهية ما أكله، ظهرت سيدة عجوز من العدم لتطلب مني أن أبحث في هاتفها على رقم "علي السويركي" فعلت لها ما طلبت فشكرتني وانسحبت مسرعة، لأكتشف بعدها أن حقيبة الكتب التي كنت أضعها بجواري على الأرض قد اختفت، ألقيت ما تبقى في يدي من طعام وهرعت أبحث عن الحقيبة في كل مكان، أسأل الباعة وأسأل المارة، أجوب الموقف بأسره لأفتش عنها لكن بلا جدوى، اختفت تمامًا، كأن الليل الذي أقبل علينا قد ابتلعها بين طيات ظلماته...

جلست على رصيف الموقف قليلًا ثم أدركت أنه لا وقت لندب الحظ، فتشت في جيوبي عن الفكة التي أتكاسل دومًا عن وضعها في المحفظة، أخرجت كل ما في جيوبي ووضعته أمامي على الأرض لأفرزه، لم أجد سوى جنيهات معدنية وورقة من فئة عشرة جنيهات وبضع ورقات من فئة الخمسة جنيهات، كنت أشبه بمتسول يجلس بجانب الطريق ليحصي غلة اليوم، لكن لم أبه بذلك فحالة الذعر التي كنت فيها جعلت الوجاهة الاجتماعية هي آخر اهتماماتي، نهضت بعدها مسرعًا كي ألحق بالمواصلات العامة فالآن لم تعد سيارة الأجرة خيارًا متاحًا...

وصلت إلى البانسيون وأنا أشعر أن جبالًا من الهم تراكمت فوق ظهري، صعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب من خلفي لأجلس على أحد الكراسي، كانت حالتي مذرية والعرق يغمر جسدي، فقمت لأستحم وأتوضأ كي أؤدي صلاتي...

بعدما انتهيت افترشت سريري وفكرت فيما يجب عليَّ فعله، أتمعن في سقف الغرفة وأنا أتساءل أي المشاكل يجب عليَّ أن أقلق بشأنها أولًا؟ ضياع بطاقتي الشخصية؟ أم ضياع الكتب التي أنفقت عليها مئات الجنيهات؟ أم ضياع المال الذي كان سيعيدني للبيت؟ أم ضياع حقيبة والدي التي لطالما حافظ عليها؟ أم ضياع الهاتف؟ فالآن لو اتصلت بي أمي ولم أجب ستظن أنني قد صدمتني سيارة أو اختطفتني مافيا تجارة الأعضاء، ولن تتمكن من كبت هواجسها تلك إلا لليلة واحدة، لتصيح بعدها باكية في وجه أبي أن أنقِذ الواد، بينما ستتمحور هواجس أبي حول ارتكابي لإحدى الموبقات كهروبي بالمال مع إحدى راقصات شارع الهرم، وهذه ليست هواجس أبي وحده، بل هواجس قريتنا كلها عن أي شاب سافر للمدينة وانقطعت أخباره، وذلك بسبب تكرار حالات هروب الشباب من مجتمع الريف إلى مجتمع المدينة، لينشأ على إثر هذا مصطلح"أبهرتهم أضواء المدينة" في قريتنا وفي كل قرى مصر...

لقد تعلم والدي الكثير من علاقته بوالده، والتي كانت عبارة عن صراع طويل بين تعنت وحدة جدي وبين تمرد وعناد أبي، كرات وفرات من الطرد

من البيت والحرمان من المال، يقابلها أبي بالسهر خارج البيت لمنتصف الليل والتدخين في سن صغيرة، حتى أنهى جدي ذلك الصراع الطويل لصالحه إلى الأبد بوفاته...

تعلم والدي الدرس بالطريقة الصعبة، ولأنه يؤمن بأن المرء كما يدين يدان، انتظر عاقبة أفعاله مع جدي في أولاده، فكان يتوقع خروجي أنا أو أحد إخوتي عن طوعه، وبالتدريج تحول ذلك التوقع إلى هاجس من الخوف، هاجس يتجسد أحيانًا على هيئة غضب زائد عن الحد أو تعنت بلا داع أو مراقبة لصيقة لي ولإخوتي، وهكذا سيظن أبي بمجرد انقطاع أخباري عنه أنني قد انقلبت على طوعه وأنه قد حان وقت العقاب الرباني العادل الذي يستحقه...

لا مفر من العودة مرة أخرى إلى الموقف لأبحث عن حقيبتي في وضح النهار، أرجو الله أن أجدها في أسرع وقت لأعود إلى البيت قبل أن أتحول إلى بطل قصص جلسات المصاطب والمقاهي في قريتنا؛ استغرقت في النوم ولم أستيقظ إلا على صوت طرقات باب الغرفة، نهضت كي أفتح الباب وأنا أدفع أثر النوم عن جسدي، لأجده شاب عشريني عرفت بعدها أنه ابن مالك البانسيون وقد جلب لي طعام الإفطار، فحجز الغرفة كان يشمل الإفطار، حمدت الله كثيرًا على ذلك ففي هذه الظروف أنا بأمس الحاجة إلى مثل هذا النوع من المعونة...

وصلت في العاشرة والنصف صباحًا إلى الموقف وبحثت في كل مكان

عن الحقيبة، فتشت في الممرات والأزقة، وسألت عنها المارة وسائقي الميكروباص والتكاتك والباعة الجائلين وأصحاب المحالّ، لتتراوح الردود بين"معرفش والله يا صاحبي" "والله يعطرك فيها يابا" وبين "هي كان فيها إيه"، "والله يعوض عليك حد بيلاقي حاجه في الزمن ده" لم أكن أبحث عن الحقيبة وحدها، بل أيضًا كنت أبحث عن تلك السيدة صاحبة الهاتف، فلو وجدتها وأقسمت لي برأس أمها أن ما حدث كان صدفة فلن أصدقها...

اقترب وقت العصر وقد شعرت بالجوع وبإجهاد شديد، فذهبت لشراء أي شيء من البقالة يسد جوعي، وتحتم عليَّ شراء أرخص الأنواع، أنواع لا يمكنك إيجادها إلا في أسواق القاهرة الشعبية، فلقد ابتعت عصير ماركة رمانة الميزان وبسكويت مكتوب عليه بسكويت أم لحلح، أخذت ما ابتعته وجلست على مقهى الموقف وطلبت كوب شاي، بعد لحظات جاء النادل، وهو شاب يكبرني بعام أو اثنين تقريبًا، وقد لفت انتباهه ملامح الهم التي ارتسمت على وجهي ليسألني وهو يضع كوب الشاي أمامي على الطاولة: مالك يا أخينا؟

قصصت عليه ما حدث معي من البداية حتى هذه اللحظة التي يقف فيها أمامي، ليرمقني في اهتمام وهو يحك ذقنه، ثم يقول بعدها : متقلقش، عليك وعلى المعلم سيد العتال.

فسألته: مين سيد العتال ده؟

فتعجب من جهلي وأخذ يتغزل في الأساطير التي تُحكى عن العتال وعن

سمعته التي تسبقه في كل مكان، وقال لي إنه لن يأتي اليوم، لكنه سيأتي غدًا لتحصيل الإتاوة، شكرته قبل أن يتلقى سبة بذيئة من المعلم صاحب المقهى ويعود للعمل، ثم أكملت ما أتناوله وقمت بعدها لأبحث عن الحقيبة مرة أخرى لبضع ساعات لكن بلا جدوى، فغادرت الموقف وعدت إلى غرفتي في البانسيون صفر اليدين تمامًا كالبارحة...

هربت من الجوع إلى النوم سريعًا، ولقد كانت ليلة مليئة بالكوابيس؛ أبي وأمي وكل أهل القرية يجرونني جرًا ليرمون بي أمام منزل أمنا الغولة؛ استيقظت مفزوعًا وجسدي يضج بنبضات قلبي المتسارعة، جلست على السرير وأنا أحاول أن أهدئ من روعي قليلًا، لأكتشف أن الساعة الآن الحادية عشرة ظهرًا، قمت للاستحمام سريعًا وبدلت ملابسي، ثم ذهبت إلى مطبخ البانسيون لأحصل على وجبة الإفطار خاصتي، فوجدت ذلك الشاب العشريني نفسه في المطبخ يغسل بعض الصحون، ولما رآني قال لي إنه طرق باب غرفتي في الصباح لكنني لم أستيقظ، وأنه قد وضع وجبتي هنا على طاولة المطبخ، فشكرته وتناولت طعامي ثم انطلقت إلى الموقف...

ها أنا ذا أرمق المارة وأنا أقف بجوار فاترينة بائع الكبدة، تمامًا حيث سُرقت مني الحقيبة، لن أفتش عنها مرة أخرى، فلقد أيقنت أنه لا جدوى من البحث بهذه الطريقة... لا جدوى من سؤال المارة أو الحملقة في متاعهم، وربما يجب عليَّ أن أعمل بنصيحة صبي المقهى.

ذهبت إلى المقهى وجلست على أحد الكراسي، فأتى الصبي ووضع

أمامي كوبًا من الشاي دون أن أطلب، ثم قال لي: زمانه جاي.

أشرت برأسي موافقًا ثم انتظرت قدومه، فلم تمر إلا نصف ساعة تقريبًا حتى دخل ذلك الرجل، رجل ضخم، حاد الملامح، لا يشيح بنظره يمينًا أو يسارًا كأنه لا يبالي بمن حوله، جلس على طاولة ووضع أمامه لفة كانت في يده، ليتضح أنها طبق سمين ومعه رغيف خبز بلدي، ثم شرع في تناول وجبته الدسمة...

جاء صبي المقهى ليأخذ كوب الشاي الفارغ من أمامي وحدثني بصوت خافت قائلًا: هو ده، إياك تكلمه وهو بياكل.

قالها ثم غادر مسرعًا كأنه في إحدى العمليات المخابراتية؛ ذهب الفتى ليأتي بزجاجة مياه معدنية "صاروخ" من الثلاجة وفتحها ثم وضعها على طاولة العتال

نورت يا سيد المعلمين، قالها الفتى ثم غادر دون أن ينتظر أي رد، فالعتال كان يستمتع بوجبته كوحش من وحوش البرية اصطاد لتوه غزالًا يافعًا وافترسه لآخر لقمة؛ بعدما أنهى طعامه قام العتال لغسل يديه في حوض المقهى، وانطلق بعدها الفتى لينظف طاولته ويضع عليها كوبًا من الشاي بالنعناع، ثم شرع في رص حجر الشيشة له...

في اللحظة نفسها ظهر خارج المقهى رجل آخر لا تلائم هيئته هذا المكان، فبعدما ترجل من سيارته الفارهة دخل المقهى، منمق الهيئة، ينظر يمينًا ويسارًا من خلال نظارته الشمسية كأنه يبحث عن شخص بعينه، ملامح

الاستياء تبدو عليه وإن حاول إخفاءها؛ بمجرد أن رآه العتال تحول من وحش غامض إلى كلب أليف وهتف مرحبًا: يا أهلًا.. يا أهلًا، عاش من شافك يا باشا منور الدنيا كلها.

ليقابله الآخر بابتسامة صفراء وسلم عليه في فتور، ثم جلسا على طاولة داخل المقهى.

كان اجتماعهما هذا ليس طويلًا، ولقد تمكنت من استراق النظرات دون أن يراني أحد، فرأيت العتال يمسك بورقة وقلم ليدون ما يمليه عليه ذلك الرجل، ثم رأيت ذلك الرجل يخرج ظرفًا سميك القوام ويعطيه للعتال، بعدها بلحظات خرج الرجل من المقهى مغادرًا والتحيات تتهافت عليه من فم العتال: مع ألف سلامة يا باشا، يا ألف خطوة عزيزة...

عاد العتال إلى طاولته مرة أخرى وارتشف كوب الشاي بالنعناع في استمتاع كأنه يرتشف كأس نبيذ سويسري فاخر، ثم فتح الظرف ليتأكد مما فيه ليجده ممتلئًا بآلاف الجنيهات، فأدخل منخاره في الظرف ليشم رائحة المال في نشوة واستمتاع، لقد بدل ذلك الظرف مزاجه مئة وثمانون درجة، ووجدتها فرصة مناسبة للحديث معه، مشيت نحوه في تؤدة ولما رآني حشر ذلك الظرف في جيب بنطاله ونظر لي في حيرة، فقلت له مبادرًا: سلامو عليكو، أنا قاصدك في موضوع كده يا معلم.. فأشار لي كي أجلس معه، فجلست وقصصت عليه كل ما حدث، وإذا به يبتسم ابتسامة أب فخور بأولاده ثم قال لي ضاحكًا: هم ولاد الكلب عملوها فيك.

ابتسمت أنا أيضًا لمجاراة الموقف، فأردف قائلًا وهو يربت على جيبه: أنا هساعدك بس عشان وشك حلو عليا أنت باينك جيت وجبت الرزق معاك، يلا بينا ثم هتف مناديًا لصبي المقهى: واد يا فتحي، غير لي الحجر واعمل شاي تاني بدل اللي برد ده على بال ما أجيلك.

فتحي: إنت تؤمر يا معلم.

مشي العتال مشية من يعرف إلى أين هو ذاهب، ومشيت خلفه وقد أدركت ذلك، إلى أن وصلنا لصندوق قمامة ممتلئ بالقرب من بائع الكبدة، ثم قام بقلب الصندوق بكل ما أوتى من قوة، وإذا بالحقيبة تظهر من بين القاذورات، فأمسكها العتال وأخرجها من ردم القمامة وألقى بها أمامي قائلًا: مش هي دي؟ ابسط ياعم.

فتحتها بسرعة لأجد الكتب فيها كما كانت، لكنني لم أجد الهاتف ولم أجد المال الذي كان في المحفظة كذلك، لم أجد فيها سوى بطاقتي الشخصية وإيصال شراء الكتب.

العتال: إنت شكلك ابن حلال مصفي، لو حد غيرك مكنش هيلاقيها ولو فضل يدور عليها ليوم الدين.

دس بعدها يده في جيبه وأخرج خمسون جنيهًا ثم أعطاني إياها وهو يقول: دي عشان تعرف تروح. قالها ثم استدار وتوجه ناحية المقهى، وأنا لا أدري ما الذي يحاول ذلك البلطجي فعله، هل يحاول أن يكون نبيلًا أو شهمًا؟! أنَّى له هذا... لقد سرق مني ذلك اللعين ما يقارب التسعمائة جنيه،

وها هو يتصدق عليَّ بخمسين جنيهًا، فبعدما حدث أدركت أنه يقوم بتسريح اللصوص والنشالين بهذا الموقف، نعم أنا أعلم ذلك، بل ربما هو أيضًا يعلم أنني أدركت ذلك، لكنني لا أجرؤ على مواجهته بأنه مجرد لص، فلا يمكن للمرء أن يصل لهذا المستوى من الصراحة مع بلطجي، وإلا سمعت ما لن يرضيني وشعرت بما سيؤلمني؛ سرعان ما حملت الحقيبة وانطلقت عائدًا إلى البانسيون وقد عقدت العزم على العودة إلى المنزل، فالآن ليس معي من المال إلا ما سيكفيني للعودة لقريتنا، وبضع جنيهات فكة لن تكفيني إذا أردت البقاء وإكمال مهمة حجز سكن للجامعة...

وصلت إلى البانسيون ووجدت الشاب نفسه يقف في الاستقبال، فأخبرته أنني أنوي المغادرة بعد ساعة واحدة، فتعجب لذلك ونصحني بالانتظار إلى أن تنتهي مدة الحجز كي لا تضيع نقودي هدرًا، فالقاعدة تقول إنك لن تتمكن من استرجاع مالك إذا قمت بالحجز في فندق أو بانسيون، ثم ألغيت الحجز. فقلت له: هي جات عليكم؟! ليفهم أن مشكلة ما قد حدثت لي، وطلب مني أن أقص عليه ما حدث، فجلست معه وتجاذبنا أطراف الحديث وحكيت له ما حدث معي؛ اتَّفق معي بعدها أن العودة للمنزل هي قرار صائب كي أتجنب أي مشكلة محتملة مع والدي، ثم قال لي إن بإمكانه مساعدتي في البحث عن سكن، لأن لديه الكثير من المعارف والزملاء في منطقة بين السرايات، وكتب لي رقمه في ورقة كي أتصل به بعد يومين ليخبرني إن تمكن من إيجاد سكن...

شكرته وصعدت إلى غرفتي لأحزم أمتعتي وانطلقت بعدها إلى القرية؛ وصلت لقريتنا ليلًا لكنني لم أجد أهل القرية ينتظرونني بالمشاعل ولم أجد مشنقة منصوبة أمام دارنا كما كانت تراودني مخاوفي، كل شيء كان هادئًا كالعادة؛ وصلت إلى البيت وبمجرد أن رآني أبي ارتسمت ملامح التعجب على وجهه وسألني لما أتيت في مثل هذا الوقت، وسألني في قلق إن كنت بخير أم أصابني أي مكروه، عندها انهارت كل مخاوفي من غضبه؛ طمأنته وجلسنا معًا وقصصت عليه كل ما حدث، فقال لي إنه انشغل هو ووالدتي بأخي الذي أصابته حمى شديدة بعد سفري، لهذا السبب لم يتمكنا من الاتصال بي، ثم ربت على كتفي وقال لي: أن أصعد لغرفتي كي أستريح وسنكمل حديثنا في اليوم التالي.

" تمت بحمد الله في الرابع من أبريل عام ٢٠٥١"

انتهى الدكتور سعيد عبد الجواد رئيس جامعة القاهرة من كتابة أولى مغامراته عندما أتى للقاهرة للمرة الأولى بناءً على طلب من صديقه الدكتور نادر شوقي، فالدكتور نادر يقوم بعمل بحث اجتماعي جديد يتضمن تدوين مئة قصة حقيقية وقعت أحداثها بالقاهرة لمئة شخص من مختلف الأعمار والمدن، تحت عنوان "ذكريات العاصمة المنسية"

ولم يلتزم الدكتور سعيد بأدوات كتابة القصة القصيرة أو بمبادئ السرد النثري، هو فقط كتب قصته كما يحب أن يرويها دائمًا، وأخذ يفتش بين السطور عن أي خطأ وجب تصحيحه ويفتش بين خواطره عن أي ذكرى

نسى كتابتها، ثم أرسلها إلكترونيًا إلى الدكتور نادر؛ أشعل لفافة تبغ وقام من مجلسه ليمشى في تؤدة نحو الشرفة وبدأ في ممارسة عادته الصباحية... لفافة التبغ وفنجان القهوة والتمعن في مئات الناس ممن يمرون أمام بنايته في قلب القاهرة، ثم أخذ يفكر مليًا فيما يريد إثباته الدكتور نادر من خلال بحثه، فالبحث يستهدف رصد التغيرات الاجتماعية التي طرأت على القاهرة بعد إعفاءها من مهامها كعاصمة للبلاد...

قد يتمكن الدكتور سعيد أو الدكتور نادر وأبناء جيلهم من ملاحظة تلك التغيرات بسهولة بسبب معاصرتهم لتلك الحِقْبَة، بينما الأجيال الجديدة لا تعرف شيئًا عما كانت القاهرة عليه في يوم من الأيام، فلقد أصبح الحديث عن القاهرة كالحديث عن روما القديمة أو أطلانتس المفقودة...

لا أحد يدري متى آلت الأمور لما آلت إليه، وكطوفان نوح تتابعت الأحداث رغم أنف الجميع، باتت القاهرة كمنفى ضيق الأبعاد لمن أراد أن يذوب بين الزحام، باتت المدينة التي إذا غضب عليك رئيسك في العمل أرسلك للعمل فيها؛ أما عن الناس، فهم كما يرمقهم الدكتور سعيد، هائمون على وجوههم مستسلمون لأقدارهم، لا يدرون ولا يأبهون لما يُفعل بهم، لم يعد الاهتمام بجودة الطعام من أولوياتهم بل الأهم هي الكمية، وليس هذا بسبب الشراهة أو السفه، بل لتلبية الحاجة البيولوجية لجسم إنسان يعمل لأربعة عشر ساعة يوميًا؛ تحول التعلم إلى مجرد محاولة بائسة للهروب من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية أكثر رقيًا؛ وغدت البلطجة هي اللغة

السائدة بين الناس، حتى أنه إذا ما حاول أحدهم وصفك بالهمجية والعنف قال لك: "إنت قاهري وله إيه؟!"

بينما يتأمل الدكتور سعيد كل هذه التجليات الاجتماعية، تذكر تلك الليلة التي أُعلن فيها بشكل رسمي أن القاهرة لم تعد عاصمة البلاد، إذ كان يتجول فجرًا في ضواحي وسط البلد وظهر أمامه فتى يمسك طبشورًا ويكتب على أحد الجدران "قد آن للقاهرة أن تلعن نفسها"

"يوم سقطت واشنطن"

الوضع هنا... مستقر، ثابت، راكد، بل هو أكثر تعقيدًا من أن يوصف بمثل هذه الأوصاف، الوضع هنا... روتيني، روتيني إلى أبعد الحدود، روتيني إلى الدرجة التي تستفزك وتتحرش بجنونك لتحملك على تفجير قنبلة بمكان ما، أو شراء سلاح آلي متعدد الطلقات من أقرب متجر، لتطلق النار بعشوائية على المارة، لا، لأنك مجرم تعشق رائحة الدم والبارود، بل فقط لأن نفسك تتوق إلى التمرد على هذا الروتين المترهل ليوم واحد... لساعة واحدة... لدقيقة واحدة.

أعلم أنه من الغريب أن يشكو رجل مثلي من الروتين، أنا الذي أمضيت نصف عمري أعمل أمينًا بمكتبة عامة، ومن يعمل بوظيفة كتلك ازدحم يومه بالأعمال النمطية المتكررة، ولقد تأقلمت على هذا الوضع منذ زمن بعيد، فأنا لم أكن أتحدث عن الروتين في حياتي الشخصية، ولا عن الوضع هنا في المكتبة، بل كنت أتحدث عن الوضع في مجتمعنا "المجتمع الأمريكي"

أنا جوناثان هانز ستيوارت، أصدقائي "وهم قلة" ينادونني جون، ومعظم الناس ينادونني السيد هانز؛ أعتقد أنك مسست في كلماتي نزعة ديستوبية متشائمة؛ كثيرون هم من قالوا لي إنني صاحب نظرة تحليلية واقعية مجردة من أي مشاعر أو اعتبارات عاطفية، لا تملق، لا مجاملات، ربما لهذا السبب لم أتمكن من تكوين صداقات كثيرة... لا يهم...

كنت مهتمًا في الآونة الأخيرة بمتابعة وتحليل بعض الظواهر في مجتمعنا، لاستنتاج بعض النظريات والتجليات الاجتماعية وأدونها، لعل الفرصة تسنح لي بنشر كتاب جديد من شأنه أن يساهم في صنع مسقبل أفضل لهذه الأمة، فلطالما كانت هذه الطريقة ككرة الساحر أو أوراق التاروت الخاصة بعلماء الاجتماع، والتي تمكنهم من توقع جزء بسيط من مستقبل الأمم...

"بينما كان السيد هانز يغوص في بحر أفكاره، يكتب خواطره التي اعتقد أنها ستستحق النشر في يوم من الأيام، قضم "مارك" حبل أفكاره قضمًا، بعد أن دخل مكتب السيد هانز باندفاع دون حتى أن يطرق الباب؛ ومارك هو فتى في التاسعة عشر من عمره، كثيرًا ما يتردد على المكتبة، وسيم، منمق الهيئة، أسود البشرة، إذا نظرت إليه فكأنك تنظر إلى نسخة هذا الجيل من مارتن لوثر كينج؛ انخض السيد هانز من دخول مارك المفاجئ، وبالرغم من أن قلبه كاد يتوقف من الصدمة، إلا أنه أخذ يرمق مارك بنظرات صامتة، وبادله مارك النظرات نفسها، بعد أن أدرك أنه قام بشيء لا يليق بسبب اندفاعه كالعادة"

ليقرر السيد هانز أن يقتبس شيئًا من هزلية الآباء، ويقول: أتعلم لماذا صنعوا هذا الباب من الخشب؟

علم مارك أنه سؤال تقريري فلم يقاطعه...

هانز: لكي يصدر صوتًا مألوفًا حينما تطرق عليه بيدك يسمعه من بالداخل، فيأذن لك بالدخول.

لم يبدِ مارك أي علامة من علامات الاستياء، واعتذر في تودد.

هانز: حسنًا، ماذا كنت تريد؟

مارك: كنت أستخدم أحد أجهزة الكمبيوتر الجديدة الخاصة بالمكتبة ولم أتمكن من الولوج لشبكة الواي فاي المركزية.

هانز: استخدم جهازًا غيره.

مارك: لا يوجد أي جهاز شاغر سوى ذلك الجهاز.

هانز: حسنًا.

"أغلق هانز دفتر مذكراته، ونهض ليرافق مارك لردهة أجهزة الكمبيوتر، وعندما وصل للجهاز المنشود وألقى نظرة عليه، وهو جهاز ضمن مجموعة من الأجهزة الجديدة التي وفرتها الإدارة لرواد المكتبة، علم هانز أنها المشكلة البسيطة المعتادة التي تخص ملفات التعريف، وهذه مشكلة متكررة، توجد بجميع أجهزة الكمبيوتر الجديدة عندما تقوم بمهمة ما للمرة الأولى، عالج هانز المشكلة بسهولة، وبالرغم من أن فني الكمبيوتر قد عانى الأمرين ليلة أمس وهو يعلمه طريقة حل هذه المشكلة ولم يتمكن هانز من استيعابها إلا بعد المرة السابعة تقريبًا، لكنه لم يفوت هذا الانتصار المعنوي لأبناء جيله، ورمق مارك بنظرة هزلية يشوبها الود، وقال له بنبرة تهكم: جيل الكمبيوتر والتكنولوجيا، أليس كذلك؟ نظر إليه مارك في انبهار مصطنع، معلنًا عدم رغبته في خوض أي نقاش أو معركة كلامية تخص معضلة صراع الأجيال

تلك؛ فقام هانز من أمام شاشة الكمبيوتر ليعود إلى مكتبه، لكنه لمح ذلك الكتاب بين أغراض مارك، كتاب " كفاحي" لمؤلفه "أدولف هتلر" والذي لا يحتاج إلى نبذة تعريفية بالطبع، اندهش هانز لذلك حتى أنه توقف لثانية أو اثنتين، لكنه آثر المغادرة دون أن ينبس ببنت شفة، لعلمه أن مارك من النوع الذي لا يتقبل التطفل بصدر رحب، وتوجه إلى مكتبه ليكمل ما بدأه"

حسنًا، أين كنا... نعم، مستقبل الأمم؛ قبل أي شيء، يجب التطرق إلى الحديث عن الهوية الحالية للمجتمع الأمريكي، وتأثيرها على الجانب السايكولوجي للفرد، الفرد في المجتمع الأمريكي يعلم منذ نشأته أن وطنه، أو دولته التي ينتمي إليها بطبيعة الحال، هي دولة عظمى، لها مكانتها الرائدة التي لا يغفل عنها أحد، ومتفوقة عسكريًا واقتصاديًا بالشكل الذي ضمن لها مكانها في مقدمة دول العالم لعشرات الأعوام، وهذه الفكرة – بغض النظر عن أي حيثيات لها– مترسخة في وجدان كل مواطن أمريكي؛ ومن الطبيعي أن يترتب على ذلك شعور بالفخر لدى كل مواطن أمريكي تجاه وطنه.

لكن... ما لا أعتبره طبيعيًا، هو أن تلك الفكرة أدت إلى تولد نوع من أنواع النرجسية الجماعية أو الشعور بالاستحقاق لدى فئة كبيرة بالمجتمع الأمريكي، وأقول إنها فئة كبيرة من المجتمع، لا أقول معظمه، أو حتى نصفه، لكن تلك الفئة هي أهم فئة في المجتمع، لأنها ببساطة الأكثر تأثيرًا، لا تنسَ تلك الفئة، فسأعود إلى ذكرها بعد التطرق إلى الحديث عن بضعة أمور...

أزمة الهوية في المجتمع الأمريكي، هي أزمة معقدة بحق، لها شقان، شق متعلق بالأصل، وشق آخر متعلق بالمكان، أما عن شق الأصل، فالمشكلة تتمثل في أنه لا سبيل للخلاص منه سوى بأن يعترف المرء أنه ليس من أصل أمريكي، بل أن يعترف بأنه "تقريبًا" لا يوجد من هو ذو أصل أمريكي، وأن يتعايش مع هذه الفكرة إلى أن يتناساها، فلو كنت مواطنًا أمريكيًا وفتشت في شجرة عائلتك قليلًا، فستجد أنك اكتسبت أمريكيتك بسبب والدك أو أحد أجدادك الذي قرر أن يهاجر من وطنه الأم إلى هنا، فعلى سبيل المثال، كان جدي إنجليزيًا هو وعائلته وأجداده، إلى أن جاء إلى هنا؛ وزوجتي أيضًا، كان والدها إيطاليًا؛ وكل من ينتمي اليوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ستجد أن أصله ينحدر من دولة أخرى " بلا استثناء"

وفي حقيقة الأمر، هذا الشق "شق الأصل" لا يمثل في حد ذاته معضلة كبرى، فيمكن للمرء أن يتناساه أو يتغاضى عنه كما قلت، حتى وإن تسبب ذلك في تشتت بسيط، لكن بالنظر إلى "شق المكان" ستجد أننا نحاول الهرب من اعتراف له حتمية تاريخية، فكل من عاش هنا يعلم أن من يمشون على هذه الأرض غرباء عنها، ولم تكن الأمور لتستقر لنا هنا، إلا بعد التخلص من سكانها الأصليين بالإبادة العرقية، سواء عن طريق القتل الجماعي، أو الإخصاء الكيميائي باستخدام المواد التي تُذيب نسيج الخصية وتفتك بجدار الرحم، أو عن طريق الحرب البيولوجية القذرة، في النهاية، يجد المواطن الأمريكي نفسه مضطرًا لمواجهة تلك الحقيقة" حقيقة النشأة القذرة للوطن الذي نفخر به جميعًا" بل والتعايش معها، إما بتجاهلها أو بإيجاد مبررات

أخلاقية لها، وعلى المستوى السايكولوجي، كان ذلك سببًا من الأسباب التي جعلت المجتمع الأمريكي، هو المجتمع الذي يتقبل كل شيء وأي شيء...

رفع هانز عيناه عن الدفتر ليتفقد الوقت، فإذا به يتفاجأ بالوقت الذي قضاه منكبًا على الكتابة، فلم يتبقَ على موعد انتهاء العمل سوى نصف ساعة، وهي مدة تكفي فقط لإلقاء نظرة سريعة على الممرات والقاعات الداخلية بالمكتبة ثم المغادرة؛ طرقت السيدة "روز" الباب ثم دخلت، وروز هي مساعدة هانز، سيدة لطيفة، مخلصة في عملها، وتعتني بعائلتها قدر استطاعتها، أتت لتعطي هانز ملفًا رقيق القوام وهي على عجلة من أمرها.

روز: سيد هانز، هذا الملف الخاص بالكتب المطلوبة.

لاحظ هانز توترها وأنها تريد المغادرة سريعًا، فأردف: هل كل شيء على ما يرام؟

روز: لا أعلم، فقط أنا مضطرة إلى الرحيل الآن، اتصلوا بي من مدرسة توماس وقالوا إنني يجب عليَّ الحضور فورًا.

"توماس" هو ابنها، وعلم هانز من خوفها غير المبرر، أن المدرسة قامت باستدعائها على الأرجح بسبب المشكلة نفسها التي قصتها عليه من قبل، لكنه لم يتمكن من سؤالها وهي في هذه الحالة؛ نعم، هي تلك الهيستيريا التي تصيب الأم عندما يتم إبلاغها أن سيارة ما قد صدمت أحد أبناءها، أو أن كلبًا ما قد عضه...

غير أن توماس لم تصدمه سيارة، ولم يعضه كلب بالطبع، لكنه كأي إنسان نشأ نشأة طبيعية، يشمئز إذا ما رأى شيئًا مثيرًا للاشمئزاز، فمنذ عدة أسابيع، كانت المرة الأولى التي يدرس فيها توماس أي شيء عن المثالية، والشرح كما تعلم، لا يخلو من صور أو رسوم توضيحية، فانتابت الفتى نوبة تقزز حاول إخفاءها، إلى أن ظهرت طقوس الغثيان المعروفة، من أصوات الأعععع والأوعععع المكتومة، إلى وضع اليد على الفم والركض نحو أقرب مرحاض أو نحو أقرب مكان لا يراك فيه أحد؛ لكن توماس لم يتمكن من كبح جماح مريئة أكثر من ذلك، تقيَّأ الفتى عند عتبة الفصل، في رمزية تفرض نفسها على كل من شهد الموقف، وإذا بمعلمة الفصل تصحب توماس، لا لعيادة المدرسة، ولا حتى للحمام، بل إلى مكتب المدير...

وكانت نتيجة هذا الموقف المعلنة، هي أن توماس يمر بوعكة صحية، وقد منحته إدارة المدرسة "حرصًا منها على سلامته" أسبوعين من الراحة كإجازة مرضية ليسترد عافيته؛ والنتيجة الفعلية لهذا الموقف هي فصل توماس أسبوعين كاملين، وإنذار شديد اللهجة له ولوالدته بفصله نهائيًا من المدرسة، إن أساء التصرف مرة أخرى؛ لم يستطع توماس نسيان تلك النظرة البلهاء التي ارتسمت على وجه أمه حينما لم تتمكن من مجاراتهم في النقاش وهم يدافعون عن تلك القذارة دون أي اكتراث بمستقبل الفتى...

كان كل هذا يدور برأس هانز وهو يرمق تلك المسكينة تغادر مسرعة وهي تحاول كبت دمعها، فهي تعلم جيدًا ماهية تلك المؤامرة الأيدولوجية

الثقيلة التي تُحاك على ابنها، وليس بمقدورها فعل أي شيء...

غادر هانز المكتبة بعد تفحص كل القاعات وغرف الدراسة، للتأكد من أن أحد الحمقي لم ينم بالداخل، وكثيرًا ما يتكرر ذلك الموقف بالمكتبات العامة، نظرًا لحالة الهدوء الاستاتيكي المعهودة بأي مكتبة؛ استقل هانز سيارته قاصدًا محل الهدايا ليبتاع لزوجته نوع عطر جديد كانت تود تجربته، بالإضافة إلى قلادة لطيفة بسعر مناسب، كهدية بمناسبة ذكرى زواجهم...

أنجز هانز مهمة محل الهدايا، ثم أخرج دفتر ملاحظاته وشطب هذه المهمة من قائمة مهام اليوم؛ وهي عادة اكتسبها بسبب عمله، ثم أدرك أن معه متسع من الوقت لاصطحاب ابنه "روبرت" من المدرسة، فلقد اقترب موعد انتهاء اليوم الدراسي، فانطلق بسيارته إلى هناك...

صف هانز سيارته قرب حافلة المدرسة التي كانت تنتظر خروج التلاميذ، وانتظر حتى يرى روبرت فينياديه؛ واستغل وقت الانتظار في إلقاء نظرة على ملف الكتب المطلوبة التي سلمته السيدة روز له، لترتسم ملامح التعجب على وجهه لثانية أو اثنتين، فإذا به يجد الكتاب نفسه "كتاب كفاحي" على رأس قائمة الكتب الأكثر طلبًا، تجاوز تلك الصدفة الغريبة سريعًا، وأخذ يتفحص ما تبقى من القائمة، ليجد نفسه يتجول بين بعض الروايات وكتب التنمية البشرية، ثم أضاف لقائمة مهامه مكالمة عمل مع مسئول التوزيع لدى بعض دور النشر لإبلاغه بالقائمة، وهو رجل لطيف يدعى "دونالد ماكارثي".

طوى هانز قائمة الكتب وأرفقها بدفتر الملاحظات ووضعهما بجيبه، ثم ترجل من السيارة وأخذ يرمق الأطفال وهم يخرجون من المدرسة، حتى يتمكن من رؤية روبرت وينياديه قبل صعوده للحافلة، فروبرت لا يعلم أن والده سيأتي ليصطحبه للمنزل...

وكالعادة تاه هانز في زحام أفكاره، فلقد تذكر مشكلة السيدة روز وابنها وهو يتأمل منظر الأطفال، ليخرج هاتفه ويكتب ما خطر في نفسه وشعر أنه يستحق التدوين...

"لا أستطيع نسيان ذلك اليوم... عندما كنت صبيًا صغيرًا في المدرسة، تفاجأت أنا وزملائي بالفصل حينما دخل "mr.Burger" علينا بغتة؛ ومستر برجر هو التميمة التجارية لأحد أشهر مطاعم البرجر في الولاية بذلك الوقت، والذي يحمل الاسم نفسه "mr.Burger" شعاره عبارة عن سنجاب يمسك بشطيرة برجر في يده اليمنى ويأكل منها، ويقدم لك شطيرة أخرى بيده اليسرى، والتميمة هو شاب يرتدي دمية للسنجاب نفسه، ويمازح الأطفال بحماس يوحي بأنه يتقاضى عشرة آلاف دولار مقابل كل هذا الكم من الدعابات السخيفة والحركات البهلوانية الرديئة، وسط انبهار الأطفال بالطبع...

قدم لنا mr.burger الوجبات السعيدة بالمجان والتقط معنا صورة تذكارية، وكرر ذلك مع كل الفصول، وكلما زادت المرحلة العمرية التي يتعامل معها زادت معاناته، وصولًا لفصول المراهقين، ليجرب ذلك المسكين كمًا لا بأس

به من العبارات البذيئة والحركات غير اللائقة التي لا يفعلها صاحبها إلا بغتة، ولا يشعر بها إلا من يجربها...

عدت إلى المنزل في ذلك اليوم وأنا أحمل علبة الوجبة السعيدة، لأركض نحو أبي كعادتي وأقص عليه ما حدث وعلى وجهي ابتسامة بلهاء، ليرد بشيء من الاهتمام المصطنع المعهود في معظم الآباء: ربما سيفتتحون فرعًا لهذا المطعم في بلدتنا قريبًا...

قالها... ثم شرع في تكملة ما يفعله، وأنا لا أدري كيف استنتج مسألة الفرع الجديد تلك، من خلال هذه العلبة الصغيرة؛ وبالفعل بعد بضعة أيام افتتحوا فرعهم الجديد في بلدتنا، والذي امتلأ بالعائلات والمراهقين؛ ولقد تمكنت من فهم لعبة التسويق تلك، والتي كانت تُمارس من قبل إدارة المطعم، فلقد قاموا بجذب الأطفال من خلال الهدايا والوجبات المجانية، وبالتالي قاموا بجذب عائلاتهم، فأنت تعلم أن الإلحاح هو موهبة الأطفال الأزلية، وهم لا يكفون عن المطالبة بالذهاب لذلك المطعم، ليصبح العشاء في ذلك المطعم طقس أسري منتشر ومتكرر...

وبعد عام من تلك الواقعة، صدرت قوانين تجرم استغلال المدارس في الدعاية، لأن الترويج للأفكار أو للمنتجات بين الأطفال لاستغلالهم، جريمة أخلاقية لن يسمح بها القانون الأمريكي.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها مبادئ القانون الأمريكي تتحطم على صخرة التناقض، فمنذ بضع سنين أصدر الكونجرس الأمريكي،

القوانين التي تسمح بتعديل المناهج الدراسية بالشكل الذي يروج لأفكار المثلية، فلما لا يعد هذا استغلالًا للأطفال؟!

لسنوات طوال كانت فكرة دعم المثليين عبارة عن مجرد تعاطف مع أقلية تتعرض للرفض والعنف، وهي فكرة مغلفة بالإيمان بالحرية وروح التسامح والسلام، مثلها كمثل رفض العنصرية ضد أصحاب البشرة السمراء أو رفض العنف مع الأطفال... إلخ

كذلك كنت أعتقد أنا منذ فترة المراهقة وإلى قبل عشر سنوات مضت، وبالرغم من الدعم الإعلامي الضخم للمثلية منذ أواخر القرن المنصرم، وبالرغم ما هو متعارف عليه لدينا من شعارات الحرية الجنسية وما إلى ذلك، إلا أن المجتمع الأمريكي رفض تقبل المثلية كهوية جنسية، أو كأيدولوچية تترسخ في وجدان الناس...

فلقد عاصرت بنفسي تسعينيات القرن المنصرم وبداية القرن الحادي والعشرين، عندما كانت ردود أفعال الناس إذا ما رأوا شخص يدعى أنه شاذ جنسيًا، تتراوح بين الاشمئزاز منه وتجاهله وتجنب التعامل معه، إلى الاعتداء عليه بالسب والضرب.

بالتالي لجأت الإدارة الأمريكية إلى تطوير دعمها للهوية المثلية حتى وصلت إلى هذه المرحلة المتطرفة، والتي بدأت منذ عشر سنوات تقريبًا؛ ولا أقصد في وصفي لهذه المرحلة بالمتطرفة، ذلك الدعم الإعلامي والتنظيمي غير المسبوق لفكرة الهوية الجنسية، بل أقصد أنها مرحلة متطرفة بالمعنى

الحرفي للكلمة، تطرف يصل إلى حد التعنت والسياسات القمعية القذرة والعنف أيضًا إذا تطلب الأمر، لتتحول تلك القضية من معضلة متعلقة بالحرية الجنسية، إلى هوية يتم ترسيخها في وجدان الأطفال "بالقوة".

بخلاف سياسة تكميم الأفواه التي يعاني منها كل من يرفض تلك الفكرة أو يدعو لرفضها، فلا يمكنني تجاهل تلك القضية التي لم أسمع عنها إلا بعد عامين كاملين من حدوثها، عندما قام شاب مراهق متحول جنسيًا لفتاة، باغتصاب فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، ولقد حدث ذلك في حمام المدرسة، نظرًا لأن لوائح المدرسة تسمح بدخول من هم على شاكلته إلى حمام الفتيات تضامنًا مع قضيتهم...

فما كان من والد الفتاة إلا أن هرع ليجتمع بإدارة المدرسة، فأنكروا كل ما يقول وطلبوا له الشرطة، فاتهموا الرجل بثلاث اتهامات، أولها الإرهاب بالطبع، ثانيها مقاومة الاعتقال، وثالثها العنصرية وإثارة الذعر في مدرسة؛ وربما كانت تلك القضية ستنتهي عند هذا الحد، لكن الشرطة قد ألقت القبض على الشاب نفسه المتحول جنسيًا، وهو يحاول تكرار فعلته مع فتاة أخرى، لكن هذه المرة قد كُشف أمره بالجرم المشهود...

ليتسع نطاق تغطية تلك القضية على مواقع التواصل الاجتماعي، ومالت كفة الرأي العام لصالح الفتاة ووالدها، فالناس تكره الظلم بطبيعة الحال، رغم ذلك لم تكف الإدارة الأمريكية عن ممارسة سياسات التعنت والقمع، إذ قامت بمنع أي وقفة احتجاجية أو مظاهرة تطالب بإطلاق سراح والد الفتاة،

وعلى الجانب الآخر باركت مسيرات مؤيدة لذلك الشاب المغتصب تطالب بإطلاق صراحه وتنفي عنه أي اتهامات وجهت ضده، مسيرات شارك بها كل من هم على شاكلته، يرددون شعاراتهم المزعومة ضد العنصرية...

وهنا... فرضت تلك النظرية السايكو سوسيولوجية نفسها، فعندما تحاول فرض فكرة أو توجه على الناس بتلك الطريقة، فلن تحصل على أي شيء سوى رد فعل عكسي تجاه تلك الفكرة، فلقد أصبحت المقاطعة التي حدثت بها تلك الواقعه "وهي مقاطعة لودون بولاية فرجينيا" من أكثر المقاطعات رفضًا للمثلية، ومن أكثر المقاطعات التي يرتكب بها جرائم عنف وكراهية ضد المثليين...

ربما سيكون أول سؤال يخطر ببالك، هو لماذا تصر الإدارة الأمريكية على دعم ما يسمونه بالهوية المثلية بكل طريقة ممكنة؟ لكن السؤال الجدير بالتأمل، هو هل تستطيع الإدارة الأمريكية فرض أي فكرة أو أي توجه على المجتمع الأمريكي مهما كانت ماهية تلك الفكرة؟ وبالإجابة على هذا السؤال سنكتشف أن فئة ضخمة من جملة العوام، يعتبرون تقبل مثل تلك الأفكار هو مجرد ثمن بسيط مقابل الانتماء لدولة عظمى، عندها تتحول هذه الأمة إلى مجرد مشروع مبني على المصلحة المادية المتبادلة... إدارة يمكنها بث أي فكرة في نفوس الناس عن طريق القوة الناعمة والسياسات التعسفية تحت مسمى الحرية والتعبير عن الرأي " كالمثلية والبيدوفيليا والإسلاموفوبيا... إلخ" وشعب بلا وعي حقيقي، يتم تضليله ليستقبل تلك الأفكار ويتشرب بها...

ها هو روبرت قد خرج أخيرًا من باب المدرسة رفقة أصدقاءه، وبمجرد أن رآه هانز توقف عن الكتابة ثم ضب على هاتفه وأدخله بجيبه، واقترب من روبرت ملوحًا له بيده، فرآه روبرت وأدرك أنه أتى ليصطحبه إلى المنزل؛ انطلق روبرت نحو والده بعد أن ودع أصدقاءه، ثم صعدا إلى السيارة وانطلقا إلى البيت...

هانز: لما كل هذا التأخير؟

روبرت: أقيمت اليوم مباراة لكرة السلة بين فريق المدرسة وفريق الشباب لنادي بروكلين نتس، ولقد حضرتها مع أصدقائي.

هانز: ولماذا لم تخبرني قبل ذهابك للمدرسة؟

روبرت: لم أكن أعلم أنك ستأتي.

هانز: حسنًا، ومن فاز؟

روبرت: بروكلين نتس بالطبع. قالها روبرت وعلي وجهه ابتسامة تنم عن خيبة أمل، ثم أخرج الجهاز اللوحي الخاص به "التابلت" من تابلو السيارة، ليحاول هانز إيقافه قائلًا: مهلًا! ما الذي تفعله؟!

روبرت: أرجوك يا أبي، لم يتبقَ سوى أربع ساعات.

هانز: قدرتك على التحكم في نفسك خلال ما تبقى من سويعات، لا تقل أهمية عن تحكمك في نفسك طوال الثلاثة أيام الماضية.

أومأ روبرت برأسه موافقًا، ثم وضع التابلت في مكانه مرة أخرى، وأخذ

يتأمل تفاصيل طريق العودة للمنزل في صمت كعادته؛ أما هانز فكان سعيدًا بسبب نجاح هذا النظام التربوي الذي يحد من إدمان التكنولوجيا، والذي يشتمل على السماح باستخدام الأجهزة الإلكترونية والإنترنت في أوقات معينة خلال اليوم ولمدة سبعة أيام، يتبعها ثلاثة أيام من الانقطاع التام عن الإنترنت وألعاب الفيديو، ثم يتم تكرار هذا النظام مرة أخرى...

***

صعد روبرت للمنزل بمجرد وصولهم، ثم صف هانز سيارته بجراج المنزل، وتوجه بعدها إلى منزل جاره وصديقه والتر، والذي لا يفصل بين حديقة منزله وحديقة منزل هانز سوى سياج قصير من الشجيرات الصغيرة، فمر هانز خلال السياج مختصرًا المسافة، ثم طرق الباب ورن الجرس عدة مرات، لكن دون جدوى، فلا توجد أي استجابة أو حتى أي صوت يأتي من الداخل؛ كان هانز يريد فقط الاطمئنان عليه، ودعوته إلى حفل ذكرى زواجه "كما جرت العادة"

وبمجرد أن هم هانز ليغادر، سمع صوت فتح الباب فالتفت، ليرى والتر واقفًا أمامه بوجه عابس لا يطيق النظر إلى ضوء الشمس وبجسد يرتعد من البرد؛ فقال له هانز في تودد: من قال أن دراكولا أسطورة؟

ابتسم والتر على مضض، ثم أومأ برأسه مشيرًا لهانز بالدخول، فاقترب هانز لتباغته رائحة عبق نبيذ "شاتو جرو لاروز" التي تفوح من الداخل، والتي تنم عن ليلة غاص فيها رأس والتر في بحار الخمر، ثم لمح هانز بعض

التحف الخزفية التي كانت تصنعها زوجة والتر، مهشمة وقد انتشر حطامها بأرجاء البيت، ليقرر هانز بعدها ألا يدخل وأن يكتفي بمحادثة سريعة أمام الباب، احترامًا لخصوصية الرجل، وللطريقة التي اختارها لممارسة طقوس اكتئاب ما بعد الانفصال المعهودة...

هانز: أعتذر لا أستطيع الدخول، فأنا على عجلة من أمري، لديَّ بعض المهام المنزلية لأقوم بها، جئت فقط للاطمئنان عليك، هل أنت بخير؟

والتر: نعم... بخير، لا تقلق، ماذا عنك أنت ومارثا والأطفال؟

هانز: بأفضل حال... بالمناسبة، سنقيم حفل ذكرى زواجنا غدًا، ألا تود القدوم؟ لارا تسأل عنك دومًا وتشتاق للعب معك.

ليرمقه والتر بنظرة تعجب حاول إخفاءها لكن دون جدوى، وأردف: سأحاول... سأحاول.

هانز: سأنتظرك.

***

عاد هانز إلى منزله، وتوجه نحو المطبخ حيث كانت زوجته مارثا تعد طعام العشاء؛ وبمجرد أن رأته استقبلته بابتسامة واسعة، متسائلة: منذ متى وأنت هنا؟

هانز: دخلت لتوي من الباب. قالها وهو يقترب منها ليضمها ويطبع قبلة على جبينها، ثم أردف: هل سنأكل اليوم؟

مارثا: لو تركتني الآن سيجهز الطعام خلال ساعة.

هانز: سأتركك فقط لأنني جائع؛ سأتناول فنجانًا من القهوة في الحديقة إلى أن تنتهي.

مارثا: حسنًا.

هانز: بالمناسبة، أين لارا؟ وأين اختفى روبرت؟

مارثا: روبرت صعد إلى غرفته فور وصوله، يريد إنهاء واجباته المنزلية سريعًا قبل الغداء كي يلهو فيما تبقى من اليوم، ولارا نائمة في غرفتها، هل تريد إيقاظها؟

هانز: لا.. لا، ليس ضروريًا.

***

أعد هانز قدحًا من القهوة لنفسه، ثم خرج ليحتسيه بالحديقة؛ تأمل السماء قليلًا وتعجب لأن الغيوم في تراكم مستمر ولم تنقشع منذ الصباح، وهذا عكس ما جاء في الجريدة عن الطقس، الجو هادئ، لا رياح، لا صقيع، ودرجة الحرارة معتدلة، كل هذا يتناقض مع منظر الغيوم التي تكدست فوق الرؤوس، كأنه هدوء يسبق عاصفة ما على وشك الحدوث...

تغاضى هانز عن كل هذا، ثم وضع قدح القهوة على الطاولة وجلس على الكرسي، ليخرج هاتفه ويكتب فقرة جديدة تحت عنوان جديد، وهو...

"الهشاشة الاجتماعية"

إن ما يمر به صديقي والتر، لهو أمر يتكرر كثيرًا في مجتمعنا، يتكرر بالشكل الذي جعل من المستحيل أن يتم وصفه أو تقديره إحصائيًا، وهو الخيانة الزوجية، سواء كانت خيانة الرجل أو خيانة المرأة؛ ولو قمت باستعراض ظاهرة الخيانة الزوجية، على أنها مشكلة من المشكلات الأسرية المعاصرة، وطرحت حلولًا مباشرة لها، فسأكون بذلك غير واقعي وغير صادق بالمرة؛ سأغدو كتلك البرامج العائلية السخيفة التي كنت أتابعها في طفولتي مع العائلة، والتي كانت تستخدم شعارات على شاكلة "بالحب والتفاهم نقضي على الخيانة الزوجية" لمواجهة تلك الظاهرة؛ فكانت النتيجة أن تضاعفت كل الإحصائيات التقريبية المتعلقة بالخيانة الزوجية، وهروب الأب مع عشيقة، أو الأم مع عشيق... إلخ.

بالتالي أصبح من الواضح أن استخدام مثل تلك الأساليب الركيكة التي تعتمد على دغدغة المشاعر لحل مشكلة اجتماعية كبرى كمشكلة الخيانة الزوجية، أشبه باستخدام أقراص الأسبرين لعلاج السرطان...

لذلك كان التمعن في المشكلة أولى بالنسبة لي من طرح مثل تلك الحلول غير الواقعية؛ فبالتأمل في طبيعة نشأة الفرد داخل هذا المجتمع، سنجد أن البداية تكون بتعليم مبادئ حرية ممارسة الجنس، وحرية الاختلاط، للفتاة أو الفتى في بداية عمره، وأن يحاط بكل هذا الكم من الاستفزاز الغريزي، بالتالي يكون الانصياع وراء الرغبة الجنسية والخضوع لها أمر منطقي تمامًا،

خاصة في مجتمع يقبل تلك الأمور ويباركها، لكن يباركها بشكل علني إن حدثت بعد بلوغ السن القانونية، ويباركها بشكل ضمني إن حدثت قبل بلوغ السن القانونية.

لينشأ على إثر هذا، إنسان يتعامل مع شهوته على أنها نداء فطري واحتياج إنساني غريزي، يجب تلبيته كلما سنحت الفرصة، ليتفاجأ بعدها أنه اكتسب عادة لن يستطيع كبح جماحها بسهولة، عادة تتوحش تدريجيًا لتصل به إلى هاوية الإدمان السلوكي؛ فكيف لمن نشأ مثل تلك النشأة أن يكون مطالبًا بالالتزام بعلاقة ذات رباط مقدس كالزواج، علاقة أهم فضيلة بها هي فضيلة الإخلاص، والحفاظ على الأسرة وبنيتها، التي هي بدورها وحدة بناء المجتمع، أنَّى له هذا وقد خضع طواعية لاستعباد الشهوة...

توقف هانز عن الكتابة ليتمعن فيما كتب، ثم ارتشف قليلًا من القهوة وهو يفكر بعمق قبل أن يكتب الآتي...

وبالحديث عن الأسرة في مجتمعنا يبدأ الحديث بالضرورة عن مصطلح "الهشاشة الاجتماعية" والمجتمع الهش أو الضعيف هو المجتمع الذي يعاني من ضعف الروابط والعلاقات بين أفراده وضعف التضامن المتبادل بينهم، ويتجلى ضعف المجتمع الضعيف في أثناء الأزمات، كالكوارث الطبيعية أو في أثناء الحروب والأزمات الاقتصادية، أي في الأوقات التي لا يمكن تجاوزها إلا بالتكاتف والتراحم بين أفراد المجتمع الواحد...

ولطالما كانت الهشاشة الاجتماعية عند علماء الاجتماع الغربيين

والأوروبيين المعاصرين، نتيجة مباشرة لبعض الظواهر التي قد تصيب المجتمع كالفقر والبطالة والاستبداد وانخفاض جودة الحياة بشكل عام...

بينما كان رأي علماء الاجتماع في المجتمعات الشرقية أن الهشاشة التي تصيب المجتمع تكون نتيجة للنشأة غير السوية لأبنائه وما قد يصيبهم من سفه أو جهل، كأن تستشري فيهم النزعة المادية الفردية وتتملكهم ثقافة تلبية الغرائز...

وأرى أن الرأي الثاني هو ما يحدث الآن لمجتمعنا، فلقد تفشت فيه هذه الظواهر التي كانت نتيجة منطقية لكل ما تم غرسه في الثقافة الجماعية وتثبيته في الوعي الجمعي، مما جعل هذا المجتمع على بعد دفعة واحدة من السقوط في الهاوية.

"اكتفى هانز بهذا القدر من الكتابة وقرر مطالعة الأخبار عبر الإنترنت خلسة، فالحظر العائلي للإنترنت الذي فرضه هو بنفسه لم ينتهِ بعد؛ بمجرد أن أولج هاتفه إلى شبكة الإنترنت انهالت عليه الإشعارات كالعادة، وقبل أن يكمل التصفح لفت نظره خبر عاجل من وكالة إخبارية حكومية مفاده أن طائرة مسيرة من طائرات توقع حالات الطقس، قد تعطلت وسقطت بالخطأ على إحدى محطات الغاز الطبيعي، مما أسفر عن وفاة عشرة أشخاص، وتلفيات في البنية التحتية التقنية سينتج عنها انقطاع متكرر للكهرباء ولشبكة الإنترنت في الساعات القادمة وحتى الانتهاء من عمليات الإصلاح، وكان الخبر مرفق بصور وفيديو غير واضح من إحدى كاميرات المراقبة...

وبعد انتهاءه من مطالعة الخبر أراد أن يعرف المزيد عن الواقعة من خلال "فيسبوك" لكن بمجرد ولوجه لحسابه فوجئ بمنشور غريب يتكرر كثيرًا، إذ قام العديد من المتواجدين على حسابه الشخصي بمشاركة المنشور نفسه ومعظمهم من رواد المكتبة، حتى إن "مارك " كان منهم، والمنشور عبارة عن صورة بالذكاء الاصطناعي لملايين الناس وهم يؤدون التحية النازية المعروفة لتمثال الحرية، وفوق الصورة مكتوب "لقد حان الوقت"

تسارعت نبضات قلبه وبدت ملامح القلق ترتسم على وجهه رغم أنه لا يعلم تحديدًا ماهية ما يحدث، وتتراكم علامات الاستفهام فوق رأسه، ما هذا؟ هل هذه ثورة؟! متي نما الفكر النازي داخل هذا المجتمع؟! وسرعان ما تذكر الكتاب، كتاب كفاحي الذي تصدر قائمة الأكثر طلبًا؛ يقوم الفيسبوك بمسح تلك المنشورات تلقائيًا لكنهم يعيدون نشرها مرة أخرى بلا أي تفسيرات أو تعليقات؛ انطلق بعدها يبحث في مواقع الأخبار عن أي خبر يفسر ما يحدث، يفتش عن أي دخان لهذه النار محتملة الاشتعال لكن بلا جدوي، ثم فوجئ بانقطاع الإنترنت، يحاول استيعاب ما رأه ولا يعلم ما الذي يجب عليه فعله...

تذكر وقتها أن عليه مكالمة دونالد ماكارثي ليرسل له قائمة الكتب، فأخرج رقمه وهاتفه"

هانز: أهلًا سيد ماكارثي.

ماكارثي: أهلًا هانز، كيف حالك؟

هانز: بأفضل حال، كنت سأرسل لك قائمة الكتب المطلوبة لكن شبكة الإنترنت قد تعطلت، فوددت إخبارك أنني سأرسلها في رسالة نصية "SMS"

ماكارثي: حسنًا لا مشكلة، هل علمت بحادث اليوم؟

هانز: نعم منذ دقائق.

ماكارثي: هذا الحادث المشئوم سيتسبب في تدهور شبكة الإنترنت لثلاثة أيام كما قالوا.

هانز: نعم ستتعطل بسبب ذلك الكثير من الخدمات؛ كنت أوَّد أن أسألك أيضًا عن شيء غريب لاحظته مؤخرًا.

ماكارثي: تفضل.

هانز: لاحظت مؤخرًا رواج كتاب "كفاحي" فهو الكتاب الذي يتصدر قائمة الكتب الأكثر طلبًا في المكتبة و...

ماكارثي مقاطعًا: نعم، لاحظت ذلك أيضًا.

هانز: كيف؟!

ماكارثي: لأنه كان الأكثر طلبًا طوال الأربعة أشهر المنصرمة، في المكتبات العامة وأيضًا في منافذ بيع الكتب، لكن لماذا تعتبر هذا أمرًا غريبًا؟!

انعقد لسان هانز للحظات من هول المفاجأة، ثم أردف قائلًا: لا عليك، سأرسل لك القائمة سريعًا.

ماكارثي: حسنًا كما تريد.

بمجرد أن أغلق هانز الخط سمع زوجته مارثا تناديه وقد أعدت طعام العشاء، فلبى نداءها ودخل إلى المنزل.

***

جلس هانز وأسرته على طاولة الطعام يتناولون طعام العشاء، وعلى غير عادته قام هانز بتشغيل التلفاز ووضع جهاز التحكم بجواره على الطاولة؛ مارثا تتحدث عن تجهيزات حفل الغد، روبرت ولارا يستمعان إليها في حماس، بينما هانز يومئ برأسه موافقًا ويبتسم ابتسامة من يجاري الموقف وهو ينظر لشاشة التلفاز ويتنقل بين قنوات الأخبار ولا يوجد أي شيء عن الثورة النازية المزعومة.

تسأله مارثا عن رأيه في وصفة اللحم بالثوم الجديدة التي أعدتها، ليجيب هانز مقتصدًا: رائعة. وقد خطر بباله أن يلقي نظرة على إحدى القنوات المتخصصة في أخبار البورصة، لكن لا جديد... لا توجد حركة بيع جماعية مفاجئة أو جلسات متعثرة، ولا يوجد بنك واحد أعلن إفلاسه اليوم، كل شيء يسير بصورته الروتينية المعتادة.

عبثًا يحاول هانز إخفاء قلقه وتوتره، فلقد أدركت مارثا أن ثمة خطبًا ما به، لكنها آثرت أن تسأله بعيدًا عن الأطفال؛ قاطع هذا الجو العائلي صوت إشعار هاتف هانز، إذ تلقى رسالة نصية "SMS" من إدارة المكتبة مفادها أن غدًا سيكون عطلة رسمية بالمكتبة وبجميع الهيئات والمصالح والمدارس.

مارثا: ماذا هناك؟!

هانز: يقولون إن غدًا عطلة رسمية في...

صاح روبرت فرحًا: أجل...

فضحكوا جميعًا على إثر هذا، ثم قام هانز متعللًا بأنه شبع وأن عليه القيام ببعض المهام على الحاسوب.

مارثا: أنت لم تنهِ طعامك بعد.

ليطبع هانز قبلة على رأسها قائلًا: سأنهيه في وقت لاحق إذا ما شعرت بالجوع.

قالها ثم صعد إلى غرفة المكتب بالطابق الثاني، ولم يكد يفتح جهاز الحاسوب حتى لحقت به مارثا لتسأله عما دهاه...

مارثا: عزيزي، هل كل شيء على ما يرام؟

"لو زعم هانز أنه بخير فستدرك هي أنه يخفي عنها شيئًا ما وسيثير قلقها بذلك، بينما لو أفصح لها عن مخاوفه لأصابها بالذعر، فقرر التمويه عوضًا عن كل هذا..."

هانز: مررت على والتر اليوم وتحدثت معه قليلًا، أنا قلق جدًا عليه لم أره في هذه الحالة من قبل.

تنهدت مارثا ثم قالت: نعم، الأمر في غاية الصعوبة، لكن عزيزي هدئ

من روعك يجب عليك أن تعرف أنه هو الوحيد القادر على إخراج نفسه من هذه الحالة.

هانز: نعم أعرف، دعوته على الحفل غدًا ككل عام.

مارثا متعجبة: ماذا، لكن لما؟!

هانز: ماذا تقصدين، اعتقدت أن حضوره بيننا سيحسن من حالته النفسية قليلًا.

مارثا: هانز! بحق الله، كان يحضر هذا الحفل كل عام مع زوجته، بالتالي حضوره سيستدعي له كم من الذكريات التي يحاول نسيانها، بالإضافة لأن كل من سيحضر سيكون برفقة زوجته إلا هو...

هانز بعد أن أدرك كم هو أحمق: يا إلهي! ربما لهذا كان يرمقني في تعجب عندما دعوته.

مارثا: بالطبع لم يك...

انقطع التيار الكهربي فجأة، ففتح هانز هاتفه لينير به الغرفة.

مارثا: ما هذا؟ هل سيعمل المولد الاحتياطي؟

هانز: لا أدري، لم ينقطع التيار منذ زمن بعيد، وربما المولد بحاجة إلى صيانة، سألقي نظرة عليه بعد...

عاد التيار مرة أخرى بفعل المولد، فعلق هانز: بارك الله الصناعة الألمانية.

ضحكا معًا، ثم قالت مارثا مبتسمة: سأذهب للاطمئنان على الأطفال، وأتمنى ألا يأتي والتر غدًا.

قام هانز بنقل ما كتبه على الهاتف إلى ملف الأفكار على الحاسوب، وهو ملف خصصه لحفظ الأفكار التي سيشملها كتابه الجديد، ثم شرع في تكملة أول فقرة قام بكتابتها...

أما عن تلك الفئة من المجتمع "يقصد الفئة التي تولد عندها شعور بالاستحقاق لمجرد انتمائها لقوة عظمى" تكمن أهميتها كما قلت في كونها الفئة الأكثر تأثيرًا لا الأكثر عددًا، فمنهم السياسيون والإعلاميون وأعضاء الكونجرس ورجال القانون والحكومة وفريق الرئاسة، ولطالما شابت قصص الماسونية والمصالح المشتركة سمعتهم، لكن دعك من القصص التي لن نتمكن أبدًا من معرفة مدى صحتها، ولنتمعن قليلًا في طبيعة مهامهم...

تتلخص مهمتهم في الحفاظ على النظام العام الذي ترسخت مبادؤه لعقود والذي يحافظ بدوره على مكانة الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى، وهو النظام نفسه الذي يمنح لهؤلا شرعية اتخاذ أي قرار مهما كانت تكلفته الأخلاقية في سبيل استمراريته واستمرارية "الأسبقية الأمريكية" كما يسمونها...

يمكننا تقسيم سياسات النظام إلى سياسات خارجية وسياسات داخلية؛ وملامح السياسة الخارجية الأمريكية الحالية بدأت تتشكل في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فبعد ما أضافته الثورة الصناعية من

تحسينات في أساسيات التكنولوجيا والتصنيع أدت إلى تحسن كبير في الإنتاج الكلي والنمو الاقتصادي، وبعد ما تلي الحرب الأهلية من إعادة الإعمار وتقدم كبير في صناعة الأسلحة، وبعد السيطرة الكاملة من قبل النظام على حقول النفط التي اكتُشفت بأراضي قبائل السكان الأصليين، سواء كانت سيطرة عن طريق السياسات المراوغة والتلاعب بالقوانين أو عن طريق الاغتيالات الصامتة والإبادة الجماعية، استقر الأمر للنظام كي يبدأ عصر الهيمنة الأمريكية العالمية...

إذ ظهرت للمرة الأولى نبرة "احتلال الشعوب لتخليصها من العبودية" عندما عقد النظام الأمريكي العزم على احتلال الفلبين، زاعمين أن التدخل العسكري لن يعدو على أن يكون محاولة نبيلة لانتشال الفلبين من ظلمات الجهل والعبودية إلى نور الحضارة والحرية، والحق أن الفلبين بالنسبة لأمريكا كانت مطمعًا بسبب ثرواتها من الغاز الطبيعي والذهب والنيكل والنحاس والفضة وغيرها من الثروات، وأيضًا لموقعها الذي يعد بوابة لأسيا...

وعندما رفض الشعب الفلبيني الاحتلال وقاومه، بدأت القوات الأمريكية في ارتكاب المجازر بحق المدنيين، وحرق قرى بأسرها، حتى إن الجنرال"جايكوب سميث" قد أصدر أمره الشهير بقتل كل من تجاوز عمره العشر سنوات، ليستقر الأمر بعدها لهم؛ تلك هي" معادلة الاحتلال الأمريكي" كما أسميها أنا، معادلة تبدأ بالزعم أننا فقط نريد أن نمنح الحرية للشعب المراد احتلال بلاده، ثم تمر بمرحلة الاستخدام المفرط للقوة

وارتكاب جرائم الإبادة، لتكون النتيجة سيطرة كاملة على ثروات وموارد البلد المحتل واستغلال استراتيجي لموقعه الجغرافي، كذلك كان الأمر في هايتي ونيكاراجوا والدومينيكان وفيتنام وكوريا وأفغانستان والعراق...

وتوج النظام الأمريكي حقبة بداية القرن العشرين بانتصاره في الحرب العالمية الأولى؛ لتتقاسم أمريكا عرش العالم مع القوى المنتصرة، واستقر له الأمر على هذه الحال لعدة سنوات حتى جاء "الكساد الكبير" فلقد اكتشف النظام الأمريكي في نفسه ثغرة اقتصادية مهلكة، أدت إلى أزمات اقتصادية ومالية طاحنة لأكثر من عشر سنوات، ولم تنفرج تلك الكارثة إلا بسبب الحرب العالمية الثانية وما ترتب عليها من احتياج أوروبا للمنتجات الأمريكية...

وإن كانت أمريكا قد تقاسمت عرش العالم بعد الحرب العالمية الأولى، فبعد الحرب العالمية الثانية نصبت نفسها ملكة لهذا العالم، وأسست نظامًا عالميًا تخضع له معظم دول العالم؛ والجدير بالذكر أن استخدام أمريكا للسلاح النووي في نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن لإنهاء الحرب في المقام الأول، بل كان استعراضًا للقوة، ورسالة ترهيبية للعالم أجمع بأن من سيسيء التصرف معنا عليه أن يجرب الجحيم النووي الأمريكي...

وبعد الحرب، بات واضحًا للنظام الأمريكي أنه من الوارد أن تتكرر تلك الثُّغرة الاقتصادية المهلكة في أي وقت، وذلك بسبب الطابع الرأسمالي للاقتصاد الأمريكي، ولم يكن هناك مفر من تلك الثغرة إلا بواسطة أموال

اليهود واستثماراتهم الديناميكية في الاقتصاد الأمريكي، وبدأت بسبب ذلك حقبة الانفتاح الاقتصادي وهيمنة المنتجات الأمريكية على أسواق العالم؛ التحالف الأسطوري المعروف بين اليهود وأمريكا كان موجودًا قبل الحرب العالمية الثانية، لكنه بعد الحرب تخطى كونه تحالفًا وترقى إلى ما هو أشبه بعلاقة زواج كاثوليكي حميمة، لينشأ على إثر ذلك تحكم يهودي كامل في الاقتصاد الأمريكي، وتبعية وخضوع سياسي واضح من أمريكا لإسرائيل يظهر جليًا كلما تعرضت إسرائيل لأزمة وجودية...

وبالرغم من كل هذا، أحيانًا تلوح تلك الثغرة في الأفق أمام النظام الأمريكي ويشعر بخطورة الكساد مرة أخرى، فلقد حدث ذلك في عدة مناسبات، منها عندما قامت دول الخليج العربي بقطع البترول عن أمريكا خلال حرب السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، وأيضًا عندما قاطعت الشعوب العربية المنتجات الأمريكية بسبب غزو العراق عام ٢٠٠٣.

وأما عن السياسات الداخلية، فالحياة الحزبية في أمريكا عبارة عن مسرحية كبيرة لا يسمح فيها بالخروج عن النص، نظام انتخابي ترسخ في الأساس لضمان استمرارية ذلك الصراع الهُلامي بين الجمهوريين والديموقراطيين، ولا يُسمح للأحزاب الأخرى بالدخول في معادلة صراع السلطة، فالنظام الأمريكي يخشى توفر البيئة اللازمة لنشأة الأحزاب ذات الطابع الثوري، كالأحزاب اليسارية وأحزاب اليمين المتطرف المناهضة للنظام الحالي.

وفي سبيل ضمان استقرار النظام الأمريكي داخليًا وخارجيًا، كان حتمًا

على الإدارة الأمريكية كما قلت سابقًا أن تستخدم أساليب التضليل والتغييب لتضليل الوعي الجمعي الأمريكي، وذلك عن طريق القوى الناعمة وإغراق المجتمع بهرطقات الحرية الجنسية، وثقافة الإباحية التي تستبيح كل ما هو ضد الدين والأخلاق، وتنمي فكرة الفردانية على حساب الأسرة والمجتمع، فنشأ إثر ذلك في مجتمع هش البنية، سخيف القوام، لا يمكنه الصمود أمام أي أزمة تمس استقرار الوضع القائم، ولن يطيق عواقب تغيير النظام.

بينما كان هانز منهمكًا في الكتابة، سمع صوت إشعار جديد على هاتفه ينبأه باستعادة الاتصال بالإنترنت، هرع ليمسك بالهاتف كي يبحث عن أي نبأ جديد، فتأكدت كل مخاوفه، الأخبار تتحدث عن مظاهرات حاشدة لمن يطلقون على أنفسهم "اليمينيون الجدد" إذ حاصروا مبنى الكونجرس والبيت الأبيض مطالبين بحقهم في إنشاء حزب يميني يسعى لتغيير النظام الذي شاخت قوانينه، وذلك عن طريق تعديل قوانين إنشاء الأحزاب، وتغيير قوانين انتخابات الكونجرس وانتخابات الرئاسة، تلك القوانين التي حصرت المنافسة بين الحزبين فقط "الجمهوري والديموقراطي"

ألقى المتظاهرون القمامة في مزار توماس جيفرسون ودمروا تمثاله، وتوماس جيفرسون هو مؤسس النظام السياسي الأمريكي، هو تاجر العبيد الذي كان دائمًا ينادي بالمساواة؛ وبمجرد أن فعلوا ذلك بطشت بهم قوات مكافحة الشغب، الإحصاءات تتراوح بين مئتي قتيل وخمسمائة مصاب، والعجيب أن أعداد المتظاهرين في تزايد، لكن ذلك لم يكبح جماح اندفاع

قوات مكافحة الشغب التي تعاملت مع الأزمة على أنها تهديد خطير ومباشر لحياة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، مما أعطى لهم الضوء الأخضر لاستخدام كافة الوسائل المتاحة في سبيل تفرقة هذه الجموع الغاضبة وفض ثورتهم؛ وبحلول منتصف الليل تضاعفت أعداد القتلى والمعتقلين والمصابين، لكن في النهاية تم إخماد نيران تلك الثورة العابرة.

كان هانز يتابع ما يجري عبر شاشة التلفاز والمواقع الإخبارية في ترقب وقلق ويرجو أن يكون كل شيء قد انتهى عند هذا الحد، ثم أمسك هاتفه راغبًا في متابعة ردود الفعل على ما حدث، وبمجرد دخوله لحسابه على "فيسبوك" عثر على بث مباشر يشاركه الجميع، ويتابعه مئات الآلاف.

البث يُظهر رجلًا جالسًا على كرسي يرمق الكاميرا في صمت، رجل يرتدي بدلة جندي المارينز العسكرية الشهيرة، لكنها قديمة ملطخة بآثار دم متجلط ويكسو الرماد معظمها، وعلى وجهه قناع على هيئة جمجمة بشرية، وبين يديه بندقية الM٤ التي نالت شهرة واسعة إبان حرب أفغانستان والعراق، يغطي الظلام كل ما حوله من تفاصيل وبدا ذلك مقصودًا.

بصوت خشن وهادئ لا يمكنك أن تستشف منه أي انفعالات وبنبرة تنم عن أحبال صوتية متهالكة، بدأ الرجل حديثه قائلًا: "كم من القنابل ينبغي أن تقذفها المدافع حتى ترضى أيها الشيطان، لا تنتظر إجابة يا صديقي وامضِ في طريق آخر"

ثم أردف: كان هذا بيت شعر يُنسب لأحد الجنود المشاركين في الحرب

الأهلية، تبادر ذلك البيت إلى ذهني وأنا أرمق القنابل تهبط فوق رؤوس المدنيين كالصواعق في أول ليلة بدأ فيها القصف على بغداد عام ٢٠٠٣.

كان عليَّ في تلك الليلة أن أذكر نفسي عشرات المرات بأنني هنا لأؤدي واجب مقدس تجاه الوطن، كي لا يحملني ضميري على تفجير رأسي برصاصة، وأنهي بذلك حالة التناقض المستعصية بين ما أؤمن به وبين ما يريده الوطن مني.

اسمي "إدموند بارنز" رقيب سابق في قوات المارينز، وكنت ضمن القوات التي أُرسلت إلى العراق لاجتياحه؛ ليس الغرض من القناع هو إخفاء هويتي كما يتضح لكم، بل لإخفاء آثار إصابة تعرضت لها على يد رجال المقاومة العراقية بعد عام واحد من تواجدي بالعراق، عُدت بعدها إلى الوطن، وقد شهدت أولئك السياسيون الذين كانوا يتغنون بي أنا وزملائي على أننا أبطال ذهبنا للحرب لنضحي بأنفسنا، وها هم الأشخاص نفسهم يطالبون بإلغاء قوانين الرعاية الصحية لمصابي الحرب؛ غادرت الوطن وأنا بطل ذهب ليلبي نداء الواجب وعُدت وأنا عبء ثقيل عليه، رجل شبه مقعد، يحتاج إلى رعاية صحية لعامين متتاليين.

عندها أيقنت أن الوطن لا دخل له بما نقوم به، نحن لسنا سوى مجموعة من الغزاة المغتصبين، ذهبنا إلى هناك بناء على رغبة حفنة من الأنذال المتعطشين للدماء ولنهب ثروات الأمم، ولم يكن ما فعلناه سوى امتداد لتاريخ طويل من الاستبداد.

استبداد سعى النظام الأمريكي لترسيخه على مر العصور داخليًا وخارجيًا، ولم يكن هنالك سبيل للخلاص من ذلك الاستبداد إلا بتغيير الوضع القائم، تغيير سياسي يستهدف التخلص من حالة الركود التي لطالما سعى إليها النظام الأمريكي كي يستقر له الأمر؛ فكان القرار...

اتخذنا قرار بتدشين حزب جديد... نعم، لم أكن بمفردي، فكان معي العشرات من زملائي بالجيش ومئات المثقفين والمهتمين بالشأن العام، والذين سعوا إلى نشر أفكار الحزب بين الشباب، وهو حزب "اليمين الجديد" حزب هدفه الدفاع عن حق الشعب الأمريكي في تقرير مصيره، ومحو حالة التضليل والتغييب التي سيطرت على الرأي العام.

واستمر الكفاح لسنوات... سنوات من التعنت وتكميم الأفواه والسياسات التعسفية التي سخرت قوانين إنشاء الأحزاب لقمعنا واستبعادنا من أي مساحة تأثير حقيقي، ولذلك كان لا بد من الانتشار بين الناس بأفكارنا أولًا ثم العمل على تدشين الحزب لا العكس...

كانت هناك حالة من السخط الجماعي على الوضع الذي آلت إليه بنا أحوالنا، فكان من السهل التواجد بين الناس في الشوارع لتبشيرهم بالحركة التي ستغير طبيعة الوضع القائم، وتم وضع خطة للقيام بثورة تهدف إلى تصحيح المسار السياسي... وكما حدث... وكما شاهدتم جميعًا... أثبت النظام عن طريق المذبحة التي ارتكبها بحق المئات من الرفاق أنه غير قابل للتعديل، وأنا ممتن لذلك، فالآن أعلم يقينًا ما يجب عليَّ فعله، فلا يوجد

سبيل للخلاص من هذا النظام إلا بتدميره...

في وقت سابق من اليوم أعنت الحكومة الأمريكية عن حادث تعطل طائرة مسيرة أدى سقوطها إلى انقطاع الكهرباء وتعطل خدمة الإنترنت، هراء، محض هراء حاولت به الحكومة الأمريكية إيجاد ذريعة أمام الرأي العام لقطع الكهرباء والإنترنت، والحق أنهم كانوا يحاولون إبطاء هجمات قرصنة إلكترونية استهدفت العديد من الأنظمة الحكومية، ونحن من كنا وراء هذه الهجمات...

تمكننا خلال الساعات الماضية من السيطرة على نظام البنك الفيدرالي الأمريكي وعلى العديد من أنظمة البنوك الأمريكية، وسيطرنا أيضًا على البنية التحتية التقنية لقوات الشرطة والدفاع المدني؛ قبل المذبحة التي حدثت كانت مطالبنا مشروعة، نطالب بتغيير ناعم يحافظ على استقرار وأمن البلاد، لكن الآن وبعدما سالت الدماء على عشب حديقة الكونجرس، لا مطالب... فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

***

بدأت الأحداث في الأيام التي تلت ذلك الخطاب... إذ انهارت أسواق الأسهم وأشهرت عشرات البنوك إفلاسها، تكالب الجميع على منافذ السلع الغذائية لتخزين أكبر قدر ممكن من الطعام والماء دون أن يكترث أحد بالآخر، انتشرت عمليات السلب والنهب بين الناس، وبسبب انتشار الأسلحة بين المدنيين عمت الفوضى، وتكون لكل مقاطعة عصابة تفرض

عليها حماية مقابل إتاوة يدفعها كل سكان المقاطعة، سادت حالة من الركود غير مفهومة أدت إلى شلل حركة التجارة الخارجية، ولم يعد هناك معيار واضح يتم على أساسه تحديد قيمة الدولار الأمريكي.

***

"بعد ستة أشهر"

مؤخرًا أعلنت ألاسكا انفصالها، مما سينذر بفتح جبهة جديدة للحرب في الشمال، ولذلك أصبح من الممكن إنشاء مخيم جديد للاجئين على الحدود بين ألاسكا وكندا

وعلى حدود المكسيك، وعلى مشارف مدينة ماتاموروس الحدودية، تم إنشاء مخيم لاجئين هو الأكبر في العالم، إذ يمتد المخيم على طول الشريط الحدودي الفاصل بين أمريكا والمكسيك من مدينة ماتاموروس شرقًا مرورًا بمدينة رينوسا وصولًا لولاية نويفو ليون؛ تم إنشاء المخيم تحت إشراف وتعاون الأمم المتحدة وحكومة الولايات الأمريكية الجنوبية الانفصالية والمنظمات الحقوقية في المكسيك وكندا، ويتسع لأكثر من ثلاثمائة ألف نازح اضطروا جميعًا للفرار من ويلات الحرب الأهلية...

وفي إحدى تلك الخيم، يجلس هانز وحيدًا، يرتعد قلبه كمدًا، وقد خطت أوزار الحرب ملامحه، يمسك بقلم رصاص ويكتب على ظهر ورقة تم استعمالها من قبل:

منذ بضع سنين... قرأت رواية لكاتب مصري تمت ترجمتها للإنجليزية، كان يتحدث فيها عن نيزك نهاية العالم الذي تأكد الجميع أنه سيصطدم بالأرض ليقضي على كافة أشكال الحياة، لكن عند لحظة الاصطدام ومن بين كل دول العالم، سقط النيزك على أمريكا وحدها ولم تتضرر منه أي دولة أخرى، لتختفي أمريكا كلها من الوجود خلال دقائق؛ ثم علق الكاتب على هذه النهاية قائلًا: "نالت أمريكا الجزاء الشاعري الذي تستحقه" تبادر ذلك المشهد إلى ذهني مما جعلني أتساءل: هل النهاية الكارثية لأمريكا كانت هي المصير الحتمي الذي لا مفر منه؟ أكنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة؟ أم كنا نخشى الاعتراف بها؟

كأن كل خطوة اتخذها النظام الأمريكي في سبيل ضمان استمرارية الهيمنة الأمريكية، كانت في الوقت نفسه خطوة تجاه هذا النفق المُوحش الذي حوصرنا جميعًا بداخله.